ديوان الوقف السني
دائرة المؤسسات الاسلامية والخيرية
قسم الارشاد الاسلامي



تزكية النفس
وأثرها في الدعوة الى الله

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾
الشمس: ٩

تأليف
المهندس : جمال احمد سيدو

جمهورية العراق
ديوان الوقف السني
دائرة المؤسسات الأسلامية والخيرية
قسم الأرشاد الاسلامي

تزكية النفس
واثرها في الدعوة الى الله

تأليف
المهندس: جمال أحمد سيدو

الإيداع في دار الكتب الوثائق العراقية
برقـــــم ٤٧٧
لسنــــة ٢٠٠٦

من وحي التنـزيل:

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ
أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾

(آل عمران: ١٦٤)

الإهداء

إلى الذين اختاروا الإصلاح سبيلاً للتغيير
أهدي هذه الكلمات

مُقدّمة

الحمد لله الذي هدانا للإسلام العظيم، وأكرمنا بأنواره الهادية، فزكى بدينه القلوب، وأضاء بأنواره النفوس، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، ليتلو علينا آيات ربنا ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى صحبه الأخيار وآله الأبرار، ومن تبعهم على أثرهم بإحسان، وبعد:

فإن خير ما تتوجه إليه الهمم العالية والنفوس الكريمة هو تهذيب الأرواح وتزكيتها تخليصاً لها من دنس الشرك وشوائب الذنوب والمعاصي، وإمداداً لها بما يباركها ويطهرها من العلوم والأقوال والأعمال.

وهذه مهمة كبرى تناط بأصحاب التوجيه والإصلاح، وأول من أخذ نفسه بهذه المهمة هم الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) فزكوا أنفسهم بدين الله أعظم تزكية.

وقد شهد الله لرسله وأنبيائه أنهم القمم السامية الذين حققوا مُراد الله من عباده.

وقام الرسل أيضاً بتزكية غيرهم تحقيقاً لما أمرهم الله به، وقياماً بالمهمة التي أرسلوا بها ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾(التوبة: من الآية١٠٣)، ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾(البقرة: ١٥١)، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ

رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(آل عمران: ١٦٤).

وإذا كانت تزكية النفوس من أعظم مهمات الرسل، فإنّها المهمة التي يجب أن يُعنى بها كل مسلم، وخاصة المربون والدعاة والمعلمون.

إن النفوس المزَكاة يصلح حالها وعملها، ومهما حاولنا أن نصلح النفوس الخبيثة من غير أن نعلم سر الداء وأساس البلاء فإنه يكون الإصلاح الظاهري الذي يعالج من الجسم اصفراره وهزاله، ولو عولج المرض الذي في الأعماق لزالت تلك الآثار الظاهرة.

وقد رأينا كيف يتحول أصحاب الشر والفساد إلى أخيار صالحين عندما يحل الإيمان في قلوبهم، فتزكو به نفوسهم وتطهر أرواحهم.

إن المحاولات المضنية للإصـــلاح في بلاد المسلمين تذهب أكثرها هدراً لأن أكثر المحاولات لم تسلك السبيل الصحيح للإصلاح، ولم تعالج الأمر من جذوره، ولم تدخل البيوت من أبوابها.

إن الصلاح الإنساني ينبع من أعماق الإنسان من نفسه التي بين جنبيه، فإذا زَكَتِ النفس بالإيمان وأنوار القرآن، وتطهرت بالقول الطيب والعمل الصالح صلحت سيرة الإنسان واستقامت سريرته، فصلاح السيرة من صلاح السريرة، واستقامة الإنسان وصلاحه من كل النواحي مرهون بتزكية نفسه وإشراقة روحـــه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (الأعلى: ١٤-١٥)، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (الشمس: ٩) ، فما أحوجنا ونحن نعمل في ميدان العمل الإسلامي ونحمل هموم كيفية النهوض بالأمة الإسلامية والعودة بها إلى سابق عهدها من

عز ومجد وأستاذية، ما أحوجنا إلى مراجعة جادة ومستمرة لنفوسنا وعرضها على آيات القرآن الكريم وسيرة الرسول ﷺ وسيرة السلف الصالح الذين زكوا أنفسهم حتى أصبحوا قادة ربانيين.

الغرض من كتابة البحث:

والغرض من كتابة هذا البحث تبصير المسلمين عامة، والدعاة منهم بشكل خاص، بماهية تزكية النفس وأثرها في الدعوة إلى الله، فإذا عرفوا ذلك كان المطلوب منهم العمل بما علموا لأن العلم إنما يُراد للعمل به وإن كان متقدماً عليه، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾(محمد: ١٩)، فإذا تم لهم العلم بمعالم تزكية النفس ووسائلها والعمل بها لزمهم واجب الدعوة إلى ما علموا وعملوا، وبهذا سيكونون صالحين في أنفسهم مصلحين لغيرهم، وهذا هو المطلوب من كل مسلم ومسلمة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(يوسف: ١٠٨)، وقال الحافظ ابن حجر: قال سفيان الثوري وغيره: (أول العلم الاستماع، ثم الإنصات، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر)[١].

وغرض آخر من كتابته هو الإسهام في تغذية أبناء الصحوة الإسلامية التي نشهد آثارها اليوم في كل مكان والتي تحتاج إلى رعاية وحماية بما يضمن لها أن تسير وفق منهج تربوي يستقي من النبع الصافي،

١- فتح الباري (١ / ٢١٧).

وتستنير بهُداه لتتحرر النفوس من قيود الهوى وأوضار الشهوات فتتمحص وتصبو نحو رضا بارئها ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾(التوبة: من الآية ٧٢).

وأهم المصادر التي استفدت منها في إعدادي لهذا البحث بعد القرآن الكريم وكتب التفاسير والسنة النبوية هي: كتب (ابن قيم الجوزية، وابن الجوزي، و(منهج الإسلام في تزكية النفس) للدكتور أنس أحمد كرزون، ومؤلفات الشيخ جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين والتي جمعها في سلسلة سماها (حقيبة الداعية)، وكذلك (زاد على الطريق) للأستاذ مصطفى مشهور، و(المستخلص في تزكية الأنفس) للشيخ سعيد حوى).

خطة البحث:

وأذكر فيما يلي مخططاً إجمالياً لموضوعات البحث، والذي يتضمن ثلاثة فصول، وخاتمة وعلى النحو التالي:

الفصل الأول: تزكية النفس:

تعريفها، مصادرها، أقسامها، علاقتها بالدعوة إلى الله.

الفصل الثاني: وسائل تزكية النفس:

معرفة ماهية زكاة النفس، العمل الصالح، العلم النافع، المحاسبة والمراقبة والمجاهدة، صحبة الصالحين، التفكر، معرفة مداخل الشيطان على النفس وقطع الطرق عليها، وسائل أخرى.

الفصل الثالث: تزكية النفس وأثرها في الدعوة إلى الله تعالى.

الخاتمة.

المنهج المتبع في الدراسة:

وقد راعيت في إعدادي للبحث الأمور التالية:

١- عزوت الآيات القرآنية إلى سورها، وذكرت اسم السورة ورقم الآية منها.

٢- خرَّجت الأحاديث والآثار من مصادرها الأصلية قدر الإمكان.

٣- حاولت الاقتصار على الأحاديث الصحيحة أو الحسنة، مع الإشارة إلى من صحح الحديث أو حسنه من العلماء المحققين إذا كان في غير الصحيحين ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

٤- حرصت على جمع المعلومات من المصادر القديمة، مع الاستفادة من المراجع الحديثة.

أمل ورجاء:

إنني لا أبتغي بهذه الكلمات المتواضعة إلا وجه الله سبحانه وتعالى، ثمَّ خدمة أبناء الصحوة الإسلامية المباركة، لعلها تنفع الذين ينشدون التربية الإسلامية، ولعلها تبصر الدعاة إلى الله بحقيقة الدعوة الناجحة والمؤثرة والفعالة وسبل محافظتها، فإن للتزكية ومضات وأنوار، تصلح النفس، وتنير الطريق، وتهدي للتي هي أقوم، والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفصل الأول

تزكية النفس تعريفها وضوابطها

المبـــحث الأول: تعريف التزكية لغة وشرعاً.

المبحث الثـــاني: مصادر التزكية ومدلولاتها في القرآن الكريم.

المبحث الثـــالث: تعريف النفس.

المبحث الرابـــع: صفات النفس وأحوالها.

المبحث الخامس: أقسام التزكية.

المبحث السادس: العلاقـــة بين التزكـــية والدعـــوة إلى الله.

المبحث الأول

تعريف التزكية:

المطلب الأول: تعريف التزكية لغـــةً:

تطلق التزكية في اللغة على عدَّة معان نذكر منها:

١) التطهير والتنقية، تقول: زكى الأرض تزكية، وتعني: طهرها من النجاسة من البول وأشباهه بأن حفرها، وأزال عنها النجاسة، أو عرضها للشمسِ والهواءِ وغيرهما حتى جفَّتْ وذهب الأثر، ومنه قولـــه تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾(الشمس: ٩)، أي نقَّاها من الرجس والدنس، بدليل قوله سبحانه في الآية التي بعدها مباشرة: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس: ١٠).

٢) التنمية والزيادة، تقول زكّى المال أو الولد، وتعني: نمّاه، وزاده، ومنه قوله سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (التوبة: من الآية ١٠٣)، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (التوبة: من الآية١٠٣).

٣) الإصلاح، تقول: زكّى الشيء، وتعني أصلحه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً﴾(مريم: ١٣) ، أي صلاحـــاً، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(النور: من الآية٢١)، أي يصلح سبحانه من يشاء.

٤) الثناء أو المدح أعم من أن يكون للنفس أو للغير، تقول: زكّى نفسه تزكيةً، وتعني: مدحها، وأثنى عليها، وزكّى غيره: مدحه وأثنى

عليه بالأوصاف الجميلة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾(النجم: من الآية ٣٢)، يعني: فلا تمدحوا أنفسكم، أو تثنوا عليها فهو سبحانه أعلم بمن اتقى[١]، وفي حديث زينب: كان اسمها برَّة، فغيَّره ﷺ إلى زينب، وقال: ((تزكِّي نفسها))[٢]، والحقيقة أنه لا تضاد ولا تناقض بين هذه المعاني جميعاً، إذ منها ما يتناول مراتب صلاح هذه النفس من: التَّطهير ثم التنمية، ومنها ما هو مظهر من مظاهر صلاح هذه النفس، وأمارة من أماراتها، وهو الثناء أو المدح إذا كان من أجل لفت نظر الآخرين إلى أهل الصلاح والتقوى، ولو كان الإنسان نفسه، ما دام هؤلاء مجهولين أو غير معروفين حتى يعرفهم الناس فينتفعوا بهم، وبما عندهم من خير كما جاء عن يوسف عليه السلام لما قال له الملك: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ. قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾(يوسف: ٥٤-٥٥).

١- ينظر: الصحاح في اللغة للجوهري (٦ / ٢٣٦٨)، لسان العرب لابن منظور (١٤/٣٥٨-٣٥٩)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروز آبادي (٣/١٣٢-١٣٥)، المعجم الوسيط (١/٣٩٦-٣٩٧) بتصرف.

٢- الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب الآداب: باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن، وتغيير اسم برَّة إلى زينب، وجويرية ونحوها (٤/١٦٨٧-١٦٨٨) رقم (٢١٤١)، من حديث أبي هريرة بلفظ: ((أن زينب كان اسمها برَّة، فقيل: تزكي نفسها، فسمَّاها رسول الله ﷺ زينب))، ورقم (٢١٤٢)، من حديث محمد بن عمرو بن عطاء، حدثتني زينب بنت أم سلمة، قالت: كان اسمي برَّة، فسماني رسول الله ﷺ زينب، قالت: ودخلت عليه زينب بنت جحش واسمها برَّة، فسمَّاها زينب، وفي رواية: ((سميت ابني برَّة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وسميت برَّة فقال رسول الله ﷺ: ((لا تزكوا أنفسكم، الله أعلم بأهل البر منكم))، فقالوا: بم نسميها ؟ قال: ((سموها زينب)).

والتدسية ضد التزكية، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس: ٩-١٠)، وأصل التدسية: الإخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾(النحل: من الآية٥٩)، فالعاصي يدسّ نفسه في المعصية ويحقرها[١].

قال الزجّاج: ﴿دسَّاها﴾ جعلها ذليلة حقيرة خسيسة[٢].

وقال ابن قتيبة: أي أخفاها بالفجور والمعصية [٣].

المطلب الثاني: تعريف التزكية شرعـــاً:

أما شرعاً فإن التزكية تعني إصلاح النفس بتطهيرها وتنقيتها من كل العلل والأمراض القلبية والسلوكية، بل والتسامي بها إلى أرقى مراقي الكمال والصلاح بحيث يفيض هذا الصلاح بالخير لها وللآخرين في الدنيا والآخرة، أو (هي تطهير النفس من نزعات الشر والإثم، وتنمية فطرة الخير فيها مما يؤدي إلى استقامتها وبلوغها درجة الإحسان)[٤]، وانطلاقاً مما قدمنا فإن تزكية النفس: هي كل ما يتعلق أو ما يدور حول إصلاح النفس، إصلاحاً يجعلها أهلاً للخلافة والسيادة، بل والقيادة والريادة والإمامة في الدنيا، والسبق، والفوز والنجاة في الآخرة [٥].

فبزكاة النفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة، وهو أن يتحرى العبد ما

١- ينظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي / للإمام ابن قيم الجوزية – ص / ٨٤.

٢- ينظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٠ / ٦٢٨).

٣- نفس المرجع (١٠ / ٦٢٩).

٤- منهج الإسلام في تزكية النفس للدكتور أنس أحمد كرزون (١ / ١٢).

٥- مجلة المجتمع العدد (١١٩٧) – ٥/ دو الحجة / ١٤١٦هـــ – ٢٣/٤/١٩٩٦م - ص ٥٢.

فيه تطهيره [1].

هذه هي التزكية الفعلية وهي محمودة، أما التزكية القولية كأن يمدح الإنسان نفسه فهي منهية عنها ومذمومة لقوله تعالى: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾(النجم: من الآية٣٢).

١- ينظر: الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن (٣٨١).

المبحث الثاني

مصادر التزكية ومدلولاتها في القرآن الكريم:

وردت كلمة التزكية في مواضع عديدة من القرآن الكريم، وهي تارة تنسب إلى الله تعالى، وتارة تنسب إلى الرسول ﷺ، وتارة تنسب إلى العبادة، ويمكن تلخيص المعاني التي وردت فيها كلمة (التزكية) في آيات القرآن الكريم في أربع نقاط[1]:

١- نُسبَتِ التزكية إلى الله سبحانه؛ لكونه فاعلاً لذلك في الحقيقة، وتأتي بمعنى الهداية والتوفيق في الدنيا، ومنه قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾(النساء: من الآية٤٩)، كما نسبت إليه سبحانه في الآخرة بمعنى: التطهير للمؤمنين من دنس الذنوب، ومنه قوله تعالى في حق الكفار: ﴿وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(البقرة: من الآية١٧٤).

٢- نُسبَتِ التزكية إلى الرسول ﷺ لأنه المربي والمزكّي لأمته والمرشد إلى طريق الخير، وهذه هي المهمة التي كلفه الله بها وأمره بأدائها، ولكونه واسطة في وصول ذلك إليهم. قال سبحانه: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾(البقرة: ١٥١)، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ

١- ينظر: (مفردات ألفاظ القران،راغب الأصفهاني (٣٨٠-٣٨١)، (منهج الإسلام في تزكية النفس / د. أنس أحمد كرزون (١/ ١٠-١١)).

وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(آل عمران: ١٦٤)، وقال سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾(التوبة: من الآية١٠٣).

٣- ونُسبَت التزكية إلى العبد، لأنه يزكي نفسه بالآيات والمجاهدة، ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾(الشمس: ٩)، ويزكي أمواله بدفع الزكاة التي هي حق الفقير، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾(البقرة: من الآية٤٣)، ويزكي طعامه بالبحث عن الحلال الطيب، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً﴾(الكهف: من الآية١٩).

٤- ونسبت التزكية إلى العبادة التي هي آلة في ذلك، نحو: ﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً﴾(مريم: ١٣)، ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً﴾(مريم: من الآية١٩)، أي مزكّى بالخلقة، ويجوز أن يكون تسميته بالمزكّى لما يكون عليه في الاستقبال لا في الحال، والمعنى سيتزكى [1].

١- مفردات ألفاظ القران للراغب الأصفهاني (٣٨١).

المبحث الثالث

تعريف النفـــس

النفس لغةً [1] تُطلق على عدة معانٍ، ومن أبرزها:

١- النَّفس: بمعنى الروح، يقال: خرجت نفس فلان، أي روحه.

٢- النَّفْس: بمعنى ذات الشيء وحقيقته، تقول: قَتل فلان نفسه وأهلكَ نفسه، أي: أوقعَ الهلاك بذاتهِ كلها، فالنَّفْس هنا تطلق على الإنسان جميعه، ونفس الشيء: ذاتــه.

وقد وردت (النَّفْس) في القرآن الكريم في مواضع عديدة، وتعددت معانيها بحسب سياق الآيات الكريمة الواردة فيها، ولكن يمكن إجمال هذه المعاني في المجالات الخمسة التالية:

١- النَّفس بمعنى الروح: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُم﴾(الأنعام: من الآية٩٣)، وذلك أن الكافر إذا حضرت وفاته تتفرق روحه في جسده فتُخرجها الملائكة وتنتزعها بشدة، ويقال لأصحابها ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُم﴾ أي أرواحكم، وذلك توبيخاً وزجراً، والغالب في استعمال الشارع للفظي الروح والنفس أن الروح إذا كانت في البدن يقال لها نفس فإن أخرجت منه يقال لها روح.

٢- النَّفس بمعنى الإنسان كله روحاً وجسداً: ومنه قوله تعــالى: ﴿وما خَلْقُكُمْ ولا بعْثُكم إلا كنفسٍ واحدة﴾(لقمان: ٢٨)، أي إنَ خلق

١- لسان العرب / مادة (نفس)- (٦٨٨)، مفردات ألفاظ القران للراغب الأصفهاني (٨١٨).

جميع الناس وبعثهم بالنسبة إلى قدرة الله سبحانه كمثل خلق إنسان واحد، فالجميع هين عليه سبحانه.

٣- النَّفس بمعنى القُوة المفكرة في الإنسان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾(النمل: ١٤). فاليقين الذي هو إدراك عمَليّ نُسبَ إلى النفس، كما هو واضح في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾، وعليه فهي القوة المفكرة الواعية وهي مناط التكليف.

٤- النَّفس بمعنى القلب، وما يتصل به من الصدر والفؤاد وغيرهما، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾(الأعراف: ٢٠٥)، وقوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾(يوسف: من الآية٧٧)، وبالتالي هناك صلَة وثيقة بين النفس من جهة، وبين القلب والصدر والفؤاد، والنفس بهذا المعنى داخلةٌ بلا شك في موضوع البحث.

٥- النفس بمعنى قوى الخير والشر في الإنسان:

وهذه النفس لها صفات وخصائص كثيرة، فهي تحب وتكره، وتنوي وتعتزم. كما ترشد صاحبها إلى طريق الخير وتلومه على فعل الشر، ولهذه النفس آثار ظاهرة في السلوك الإنساني.

ومعظم آيات القرآن الكريم التي ورد فيها ذِكْرُ (النفس) يُقصَد بها هذا المعنى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٦)، وقوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى. فَإِنَّ الْجَنَّةَ

هِيَ الْمَأْوَى﴾(النازعـات: ٤٠-٤١)، وقوله عزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾(القيامة: ٢).

ومن هنا يمكن تحديد تعريف النفس من خلال المعنَيينِ الأخيرَين بما يلي:

النَّفْس: هي شئ داخلي في كيان الإنسان، لا تُدْرَك ماهيَّتُه، قابل للتوجه إلى الخير أو الشر، وجامع لكثيرٍ من الصفات والخصائص الإنسانية التي لها آثار ظاهرة في السلوك الإنساني.

والنفس بهذا المعنى تشمل الروح والقلب وكل ما في الإنسان من قُوى الإدراك التي يميز بها بين الخير والشر[1].

١- ينظر: منهج الإسلام في تزكية النفس (١ / ١٣ – ١٦).

المبحث الرابع

صفات النفس وأحوالها:

هذا المبحث يتناول مطلبين اثنين، أولهما عن صفات النفس الإنسانية، وثانيهما عن أحوال تلك النفس.

المطلب الأول: صفات النفس الإنسانية:

القرآن الكريم كتاب أنزله الله سبحانه لهداية النفس البشرية، فهو يخاطب النفس ويوجهها، وفي سبيل هذا التوجيه يكشف للإنسان عن بعض أسرار نفسه وخصائصها وصفاتها المحمودة والمذمومة، ومن أبرز ما يهمنا في موضوعنا هذا ما يلي:

١- قابلية النفس للخير والشر:

أودع الله سبحانه في النفس الإنسانية خصائص القدرة على إدراك الخير والشر، والتمييز بينهما، والاستعداد لهما.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: ٧-٨). وقال عز وجل: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: ١٠)، أي: بيّنا له الطريقين، طريق الخير وطريق الشر. وقال سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(الإنسان:٣).

وهذه الآيات الكريمة تشير إلى أن طبيعة الإنسان قابلة للخير والشر، وأنه مزود باستعدادات لعملهما، وقادر على التمييز بينهما، كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر، وهو مسؤول ومحاسب بما منحه الله من عقل فيه القوة الواعية القادرة على الاختيار

والتوجيه[1].

والنفس الإنسانية ذات إرادة حرة غير مجبرة، وهذه أهم صفة من صفات النفس الإنسانية، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(السجدة: ١٣).

٢- الصفات المتقابلة في النفس البشرية:

من عجائب التكوين البشري وجود خطوط متقابلة في النفس، كل اثنين منهما مختلفان في الاتجاه، ومن أبرزها، الخوف والرجاء، الحب والكره، السلبية والإيجابية... وغيرها.

وهذه الصفات المتقابلة المتوازية تؤدي مهمتها في ربط الإنسان بالحياة، وفي الوقت ذاته توسع أفقه وتعدد جوانبه فلا ينحصر في نطاق واحد، وبذلك يتحقق للإنسان كيان فريد يرجع إلى النشأة العجيبة المعجزة: قبضة الطين ونفخة الروح.

ومن الخطأ تفسير النفس بأي من هذه الصفات وحدها دون بقية الصفات، لأن النفس تعمل بمجموعها كله، وكل تفسير لها بجزء منفصل ومستقل، هو تفسير مشوه ومخطئ[2].

٣- الإدراك على اختلاف مستوياته:

دلت النصوص القرآنية على أن الإدراك العلمي على اختلاف مستوياته من الصفات التي تتصف بها النفس الإنسانية، ففي مستوى

١- ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٦ / ٣٩١٨).

٢- ينظر: دراسات في النفس الإنسانية -محمد قطب (٧١)، وما بعدها، منهج التربية الإسلامية للمؤلف نفسه (١ / ١٢٦)، وما بعدها.

اليقين وصف القرآن الحالة النفسية لفرعون وقومه أمام الآيات التي جاءهم بها موسى عليه السلام، بقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (النمل: ١٤).

وفي مستوى الظن الباطل وصف القرآن حالة المنافقين في غزوة أحد، بقوله: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (آل عمران: ١٥٤).

وبين هذين المستويين الأعلى والأدنى سائر المستويات الإدراكية التي من خصائصها معرفة طريق الفجور وطريق التقوى[١].

٤- القدرة على إخفاء المطالب والمشاعر:

من صفات النفس القدرة على إخفاء مطالبها ومشاعرها في ذاتها، وقد وردت هذه الصفة في آيات عديدة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ﴾(آل عمران: ١٥٤)، وقوله سبحانه: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾(المائدة: ٥٢)، وقوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾(يوسف: ٧٧).

وقد بين سبحانه أنه مطلع على خفايا النفوس، وأن النفس إذا أخفت الشر والمعصية عن الناس فإن هذا لا يخفى على علاّم الغيوب سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ

١- ينظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها – للشيخ عبد الرحمن حبنكة – (١ / ٢٢٦) وما بعدها.

وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(البقرة: ٢٣٥))[١].

يقول الشاعر:

إذا مــا قـــــال لي ربي أما استحييت تعصيني

وتخفي الذنب عن خلقي وبالعصيــان تأتيــني

وكان الإمام أحمد يردد هذه الأبيات ويبكي.

المطلب الثاني: أحوال النفس:

من خلال الآيات القرآنية التي ورد فيها الحديث عن النفس الإنسانية وصفاتها وأحوالها يتبين لنا أن هناك ثلاثة أحوال للنفس وهي: النفس الأمارة بالسوء، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة، وهذا ما ذهب إليه الغزالي في إحيائه...

١- النفس الأمارة بالسوء:

ثمة تعريفات عدة لهذه النفس، فيعرفها الإمام الغزالي بأنها: (النفس التي أذعنت وأطاعت دواعي الشيطان)، ويعرفها الإمام جنيد البغدادي بأنها: (هي الداعية إلى المهالك المعينة للأعداء، المتبعة للهوى، المتهمة بأصناف الأسواء)[٢].

عندما تنحطُّ النفس البشرية فتميل عن طبيعة الفطرة التي فطرها الله عليها، فإنها تأمر صاحبها بالشر وتسوِّل له الإقدام على فعله، وتغوي

١- الأخلاق الإسلامية (١ / ٢٢٨).

٢- الرسالة القشيرية في علم التصوف، النيسابوري – أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري – دار الخير – ط١ ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م – ص١٥٢.

بارتكاب المحرمات، وقد ورد الحديث عن هذه الحالة من حالات النفس في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(يوسف: ٥٣).

وقوله تعالى على لسان السامري الذي صنع لبني إسرائيل عجلاً يعبدونه: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾(طـه: ٩٦).

ووصف النفس في هذه الحالة بالأمارة بالسوء، يفيد المبالغة في أمرها لصاحبها بالسوء وإبعاده عن الخير.

وقد عرَّف (الجرجاني) النفس الأمارة بقوله: (هي التي تميل إلى الطبيعة البدنية، وتأمر باللذات والشهوات الحسية، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية، فهي مأوى الشرور ومنبع الأخلاق الذميمة)[1].

فالنفس تميل لتكون أمارة بالسوء إلا التي (رحمها الله) وحفظها فارتقت وسمت.

ويبين الإمام ابن القيم (رحمه الله) خطر النفس الأمارة واستغلال الشيطان لها فيقول:

(أما النفس الأمارة فالشيطان قرينها وصاحبها، فهو يَعِدُهَا ويُمَنِّيهَا ويقذف فيها الباطل ويأمرها بالسوء ويزينه لها... في صورة تقبلها وتستحسنها، ويمدها بأنواع الإمداد والباطل من الأماني الكاذبة والشهوات المهلكة ويستعين عليها بهواها وإرادتها، فمنه يدخل عليها كل مكروه)[2].

فهي التي فسدت فيها القوة العلمية فجحدت الحق وأنكرته،

١- التعريفات للجرجاني – ص ٢٤٣.

٢- الروح لابن القيم – ص ٢٢٧.

وفسدت فيها القوة العملية فأعرضت عن العمل الصالح وابتليت بكل خبيث وقبيح فلا تزكية فيها ولا تهذيب.

٢- النفس اللّوامة:

من فضل الله سبحانه أن النفس ترتقي إلى حالة تعود فيها إلى فطرتها النقية وتزول عنها غشاوة المعصية فتلوم نفسها على فعلها، وتدعو صاحبها للتوبة، كما تحذره من الوقوع في المعاصي قبل حدوثها.

وقد ورد ذكر هذه الحالة من حالات النفس في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾(القيامة: ١-٢).

فالله سبحانه أقسم بهذه النفس تعظيماً لشأنها كما أقسم بيوم القيامة، وقد نقل الإمام القرطبي عن ابن عباس ومجاهد والحسَن وغيرهم، أن هذه النفس هي نفس المؤمن الذي لا تراه إلا يلوم نفسه، يقول: ما أردتُ بكذا ؟ فلا تراه إلا وهو يعاتب نفسه[١].

وقال الجرجاني في تعريفه للنفس اللوامة: (هي التي تنورت بنور القلب، قدر ما تنبهت به عن سِنة الغفلة، كلما صدرت عنها سيئة بحكم جبلتها الظلمانية، أخذت تلوم نفسها)[٢].

وقال الإمام ابن القيم (رحمه الله) في حديثه عن النفس اللوامة: (هي التي لامت نفسها في طاعة الله، واحتملت ملام اللائمين في مرضاته، فلا تأخذها فيه لومة لائم، فهذه قد تخلصت من لوم الله، وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولم تحتمل في الله ملام اللُّوام، فهي

١- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٩ / ٩٢ - ٩٣).

٢- التعريفات - ص ٢٤٣.

التي يلومها الله عز وجل)[1].

فهذه هي النفس التي يحصل فيها تزكية مع شئ من الدنس والشوائب مصحوبة باللوم الكثير لصاحبها في حالات الضعف والفتور.

٣- النفس المطمئنة:

هي أعلى درجات النفس، فهي نفس اطمأنت بإقامتها على طاعة الله، فسلّمت بوعده ورضيت بقضائه وتوكلت عليه، وذاقت حلاوة الإيمان فلم تعد ترضى به بديلاً، واستشعرت لذة المناجاة بين يدي الله سبحانه فلم تعد مغريات الحياة تشغلها عن طاعة ربها ولا تصدها زينتها عن ذكره تعالى، وقد ورد ذكر هذه الحالة من حالات النفس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾(الفجر: ٢٧-٢٩).

يقول سيد قطب في تفسيره (في ظلال القرآن) عند تفسير هذه الآية: (هكذا في عطف وقرب: (يا أيتها) وفي روحانية وتكريم: (يا أيتها النفس).. وفي ثناء وتطمين: (يا أيتها النفس المطمئنة).. وفي وسط الشد والوثاق، الانطلاق والرخاء: (ارجعي إلى ربك) ارجعي إلى مصدرك بعد غربة الأرض وفرقة المهد. ارجعي إلى ربك بما بينك وبينه من صلة ومعرفة ونسبة.. (راضية مرضية) بهذه النداوة التي تفيض على الجو كله بالتعاطف وبالرضى.. (فادخلي في عبادي).. المقربين المختارين لينالوا هذه القربى.. (وادخلي جنتي).. في كنفي ورحمتي.. إنها عطفة تنسم فيها أرواح الجنة. منذ النداء الأول: (يا أيتها النفس المطمئنة).. المطمئنة إلى ربها. المطمئنة إلى طريقها. المطمئنة إلى قدر الله بها. المطمئنة في السراء

١- الروح لابن القيم - ص٢٢٦.

والضراء، وفي البسط والقبض، وفي المنع والعطاء. المطمئنة فلا ترتاب. والمطمئنة فلا تنحرف. والمطمئنة فلا تتلجلج في الطريق. والمطمئنة فلا ترتاع في يوم الهول الرهيب...)[1]

فهي نفس زكية ساكنة ثابتة مع الحق، لا يعتريها صراع ولا تخبط ولا قلق ولا اضطراب، لأنها أدركت طريق سعادتها ورضيت به، ولذلك يقال لها: (ارجعي إلى ربك راضية مرضية)، فقد رضيت عن الله ورضي الله عنها وأرضاها، ولذلك تبشر بمقعدها من الجنة ويقال لها: (فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) وتأتيها البشارة هذه في مواضع ثلاثة: عند الاحتضار وعند الحشر وعند دخول الجنة[2]

قال الجرجاني في تعريفه للنفس المطمئنة: (هي التي تم تنورها بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة وتخلقت بالأخلاق الحميدة)[3]

ولا شك أن الطريق لتحقيق هذه الحالة من حالات النفس والوصول إليها هو ذكر الله بالقول والعمل ومراقبته في السر والعلن، حتى تطمئن النفس ويخشع القلب.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(الرعد: ٢٨).

والوصول بالنفس الإنسانية إلى هذه الحالة هي الثمرة الكبرى لتزكية النفس.

ويبقى أن أشير إلى موضوع يتصل بأحوال النفس وهو أقسام القلوب: فقد ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة الإشارة إلى أن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٣٩٠٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن [illegible] (٤/ ٥١).

(٣) التعريفات، ص٢٤٣.

للقلوب أقساماً، فمنها القلب الميت، والقلب المريض، وهذان يقابلهما النفس الأمارة، ومنها القلب الذي استنار بنور الإيمان ولكن خالطه بعض الشهوات فللشيطان عليه إقبال وإدبار، وهو يقابل النفس اللوامة. ومنها القلب السليم العامر بالإيمان وهو يقابل النفس المطمئنة..

وذكر ابن قدامة في كتابه (مختصر منهاج القاصدين) أنواعاً ثلاثة للقلوب حيث أورد قوله: (واعلم أن القلوب في الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة:

الأول: قلب عُمِّرَ بالتقوى، وزُكِّي بالرياضة، وطُهِّرَ عن خبائث الأخلاق، فتتفجر فيه خواطر الخير من خزائن الغيب، فيمده الملك بالهدى.

الثاني: قلب مخذول، مشحون بالهوى، مدنس بالخبائث، ملوث بالأخلاق الذميمة، فيقوى فيه سلطان الشيطان لاتساع مكانه، ويضعف سلطان الإيمان ويمتلئ القلب بدخان الهوى فيعدم النور، ويصير كالعين الممتلئة بالدخان لا يمكنها النظر، ولا يؤثر عنده زجر ولا وعظ.

الثالث: قلب يبتدئ فيه خافر الهوى، فيدعوه إلى الشر، فيلحقه خاطر الإيمان، فيدعوه إلى الإيمان)[1].

وهكذا ترتبط أحوال النفس بأقسام القلوب باعتبار أن القلب دائرة من دوائر النفس تشترك معها في كثير من الخصائص والصفات[2].

المبحث الخامس

١- مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة (١٦٥).

٢- منهج الإسلام في تزكية النفس (١ / ٤١ — ٥٨).

أقســـام التزكية:

تنقسم التزكية إلى قسمين:

أولاً: فطرية، وهو ما خلق الله عز وجل العباد عليه، من نقاء الفطرة، وصفاء القلب، وإليه يشير قوله سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(الروم: ٣٠)، ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾(مريم: ١٣)، ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾(مريم: ١٩)، وقوله ﷺ: ((ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه، كما تُنتَجُ البهيمةُ بهيمة هل تُحسون فيها من جدعاء ؟)) ثم يقول أبو هريرة‌رضي الله عنه: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(الروم: ٣٠) [١]. ((لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء))[٢].

الثاني: كسبية، وبدايته جهد العبد ومجاهدته لنفسه وذلك من خلال البعد عن المعاصي والسيئات صغيرها وكبيرها، والمواظبة على الطاعات والفرائض، وأداء للنوافل، والرعاية التامة للآداب الاجتماعية وفعل الخيرات، كعيادة المرضى، وتشييع الجنائز، وزيارة القبور، وقضاء

١- الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجنائز: باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وباب ما قيل في أولاد المشركين (٢ / ١١٨ – ١١٩، ١٢٥)، وكتاب التفسير: سورة (ألم. غُلبت الروم): باب لا تبديل خلق الله لدين الله (٦ / ١٤٣)، وكتاب القدر: باب الله أعلم بما كانوا يعملون (٨ / ١٥٣).

٢- الحديث أخرجه أحمد في: المسند (٢ / ٣٥٣).

الحوائج، والسؤال عن الغائب، ومواساة أهل الشدائد، والتهنئة بنعمة، والتفكر في النفس، وفي الكون، وفي أحوال الموتى والآخرة، ومن جمع الهمّة وطرح الخواطر الرديئة، وحضور مجالس العلم والمواعظ والرقائق، والاعتكاف، والصحبة الطيبة، وهكذا فإن هذا الجهد وهذه المجاهدة، إذا كان معهما صدق، وإخلاص، وإتقان أثمر تزكية يفيض بها رب العباد على العباد، رحمة منه وفضلاً.

وحسبنا بعض النصوص التي تشير إلى وقوع هذا النوع من التزكية كثمرة للجهد والمجـــاهدة اللتين يبذلهما العبد:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(التغابن: ١١)، ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(الرعد: ٢٨)، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ﴾ (محمد: ١٧)، ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة:١٥٢). ويقول رسول الله ﷺ: ((إن الإيمان لَيَخْلَق في جوف أحدكم كما يَخْلَق الثوب، فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم))[1]، ((جددوا إيمانكم)) قيل يا رسول الله: كيف نجدد إيماننا ؟ قال: ((أكثروا من قول لا إله إلا الله))[2].

ويشكـــو إليه ﷺ رجلٌ قسوة قلبـــه فيقول له: ((إن أردتَ تليين

١- الحديث أورده الهيثمي في: مجمع الزوائد: كتاب الإيمان: باب تجديد الإيمان(١ / ٥٢) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً به، وعقب عليه قائلاً: (رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن).

٢- الحديث أخرجه أحمـــد في المسند (٢ / ٣٥٩) من حديث أبي هريرة مرفوعاً به، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائـــد: كتاب الإيمان: باب تجديد الإيمان (١ / ٥٢) من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وعزاه إلى أحمد، وعقّب عليه قائلاً: (وإسناده جيد، وفيه سمير بن نهار، وثّقه ابن حبّان).

قلبك فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم))[1]، ((ألا أنبئكم بخياركم ؟، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: خياركم الذين إذا رؤوا ذُكِرَ الله عز وجل))[2].

١- الحديث أخرجه أحمد في المسند (٢ / ٢٦٣) من حديث أبي هريرة مرفوعاً به.

٢- الحديث أخرجه ابن ماجة في: السنن: كتاب الزهد: باب مَنْ يؤبه له (٢ / ١٣٧٩) رقم (٤١١٩)، وأورده البوصيري في: مصباح الزجاجة (٤ /٢١٥ - ٢١٦)، وعقّب عليه قائلاً: (إسناد حسن، شهر وسويد مختلف فيهما، وباقي رجال الإسناد ثقات...).

المبحث السادس

العلاقة بين التزكية والدعوة إلى الله:

هناك علاقة وثيقة بين تزكية النفس والدعوة إلى الله... ونبين ذلك من خلال النقاط الأربع التالية:

١- تزكية النفس هدف أساسي من أهداف الدعوة إلى الله:

الدعاة إلى الله هم ورثة الأنبياء، والأنبياء عليهم السلام، لم يورثوا مالاً ولا عقاراً، وإنما ورثوا علماً للعلماء، والدعاة هم العلماء، وهم بهذا الوصف ورثة الأنبياء، ووظيفتهم هي وظيفة الأنبياء عليهم السلام.

ورسالات الأنبياء جميعاً كانت دعوة إلى التزكية. ولهذا رأينا موسى عليه السلام يقول لفرعون حين أرسل إليه من ربه: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى. وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾(النازعات: ١٨-١٩).

وكانت التزكية من الشعب الأساسية لرسالة محمد ﷺ، كما جاء ذلك في آيات أربع من كتاب الله: منها ما جاء في دعوة إبراهيم وإسماعيل للأمة المسلمة الموعودة: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾(البقرة: ١٢٩)، ومنها قوله عز وجل: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة: ١٥١). وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾(آل عمران: ١٦٤). وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو

عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(الجمعة: ٢) [١]

فمن بين هذه الوظائف: (ويزكيهم)، أي تزكية نفوس الناس وتطهيرها وتنميتها بالخيرات والبركات في الدنيا والآخرة، بحيث يصير الإنسان في الدنيا مستحقاً للأوصاف المحمودة، وفي الآخرة للأجر والمثوبة.

فالداعية إلى الله، يطهر نفوس الناس بوحي الله، وينمي أرواحهم وعقولهم وأبدانهم، ويرفع بهم إلى المستوى الذي يليق بكرامة الإنسان، الذي كرمه ربه وفضله على كثير ممن خلق[٢].

٢- الدعوة إلى الله طريق لغرس الإيمان في القلب، وتزكية النفس:

حقيقة الإيمان لا تترسخ في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان لأنه يجاهد نفسه... كذلك أثناء مجاهدته للناس وتتفتح له في الإيمان آفاق لم تكن لتتفتح له أبداً وهو قاعد آمن ساكن. وتتبين له حقائق في الناس وفي الحياة لم تكن لتتبين له أبداً بغير هذه الوسيلة. ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصوراته، وبعاداته وطباعه وانفعالاته واستجاباته، ما لم يكن ليبلغه أبداً بدون هذه التجربة الشاقة العسيرة. وهذه بعض ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(العنكبوت: ٦٩).

علق سبحانه الهداية بالجهاد فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفضل الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد

١- ينظر: كيف نتعامل مع القران العظيم ؟ /د.يوسف القرضاوي- ص٩٢-٩٣.

٢- فقه الدعوة (١/٣١١-٣١٢).

الدنيا فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى الجنة، ومن ترك الجهاد فإنه من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد[1].

ولقد أدرك سلفنا الصالح هذا المعنى كاملاً فما بخلوا بجهد ولا استأثروا بوقت. بل وقفوا حياتهم كلها لله ولدعوته، فرجع مردودها عليهم زيادة في الإيمان، ورسوخاً في العقيدة. وبذلك خرج ذلك الجيل الفريد في تاريخ البشرية ولم يخرج مثله بعد[2]

٣- ت لاحظ الصلة بين قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾(الشمس: ٩)، وقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(آل عمران: ١٠٤).

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(المائدة: ٣٥)، فالفلاح في الآيتين الأخيرتين مرهون بالدعوة إلى الخير وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبالتقوى والعمل الصالح وبالجهاد مما يدلّ على أن الفلاح المتعلّق بتزكية النفس يدخل فيه هذا كله.

إن الدعوة إلى الخير والمعروف تؤكدهما في النفس وذلك يزكيها، والنهي عن المنكر يقبحه في النفس وذلك يزكيها، والجهاد تحرير للنفس من حب الحياة ومن حب الدنيا ووفاء بالعقد ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ

١- الفوائد لابن القيم (٥٩).

٢- رسائل العالمين (١/٤٣١-٤٣٢).

مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(التوبة: ١١١)، وذلك أرقى ما تصل إليه النفس المزكاة.

إن تنظيم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير من واجبات العصر، وإن إطلاق الطاقات المسلمة في طرق الجهاد من واجبات العصر.

وهذان الأمران لا يتمان إلا إذا أصبحت هذه المعاني خُلقاً للنفس. وبدون أن تكون هذه المعاني خُلُقاً للنفس يكون بين النفس والزكاة بون شاسع[١]

٤- ميدان الدعوة إنما هو نفوس المدعوين:

إن مما لا شك فيه: أن صلاح الأمم والمجتمعات من صلاح أفرادها، وصلاح الأفراد يكون بصلاح أنفسهم: وذلك بتزكيتها ومجاهدتها، حتى تنتقل من (النَّفْس الأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)[٢] إلى (النَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)[٣]، ثم إلى (النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ)[٤] [٥]

لذلك فإن من الأمور المهمة التي يجب أن يعيها ويعرفها المربي والداعي إلى الله عز وجل هي طبائع النفوس، وأنواعها، وما تحب وما تكره، وما الأمور التي تساعدها على الارتقاء، وما الأمور التي تُدَنِّي من مستواها سواء كان هذا الارتقاء أو التدني إيمانياً أو دعوياً أو اجتماعياً،

١- المستخلص في تزكية الأنفس ص١٥٦.

٢- إشارة إلى قوله تعالى على لسان امرأة العزيز: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (يوسف: ٥٣).

٣- إشارة إلى قوله تعالى: {وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} (القيامة: ٢).

٤- إشارة إلى قوله تعالى: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً}(الفجر: ٢٧-٢٨)

٥- كيف نتعامل مع القرآن العظيم ص٩٤.

وهذا ما يوضح أهمية الدعوة إلى الله.

إذن فميدان الدعوة الأولى هي نفوس المدعوين، فتعامله معها، وهي هدف الداعي الأول والأخير في التربية. ومن مستلزمات الداعية الناجح الخبرة بالنفوس[1].

من جانب آخر فإن قدرة الداعية على إصلاح نفوس الآخرين تنطلق من تمكنه من إصلاح نفسه؛ ولذلك قيل: (أصلح نفسك وادع غيرك).

من خلال ما سبق يتبين لنا مدى الترابط الوثيق بين تزكية النفس والدعوة إلى الله.

١- رسائل فتيان الدعوة ص٣٣٥-٣٣٦.

الفصل الثاني
وسائل تزكية النفس

المبحث الأول: معرفة حقيقة تزكية النفس.

المبحث الثاني: المحاسبة والمراقبة والمجاهدة.

المبحث الثالث: العمل الصالح.

المبحث الرابع: الإكثار من التفكر في خلق الله، والموت وأهوال القيامة.

المبحث الخامس: معرفة مداخل الشيطان على النفس وقطع الطرق عليه.

المبحث السادس: صحبة الصالحين.

المبحث السابع: العلم النافع.

المبحث الثامن: وسائل أخرى.

تمهيد

لابد لكل بناء من أساس، وبمقدار قوة ذلك الأساس ورسوخه ينهض البناء ويعلو ويقاوم الأعاصير.

والتزكية بناء شامخ يقوم على أسس وقواعد كما يحتاج إلى وسائل وأعمال، لكي يحقق أهدافه ويثمر ثمراته ونتائجه.

والعمل في هذا البناء دائم لا يتوقف حتى الموت، لأن تزكية النفس عملية مستمرة، وترقيتها في مقامات القرب من الله سبحانه لا حدَّ لها، وكل ذلك لا يخرج عن مقام العبودية لله سبحانه، وبناء النفس على الاستقامة والصلاح أساسه العبودية الحقة لله وحده والإيمان به سبحانه وبالدين الحق الذي ارتضاه لعباده ليكون لهم شرعة ومنهاجاً.

والمراد بوسائل تزكية النفس هي الأعمال التي تؤثر تأثيراً مباشراً على النفس بأن تشفيها من مرض أو تخرجها من أسر أو تحققها بخلق إسلامي أو مقام إيماني. ونجملها في المباحث السبع الآتية:

المبحث الأول

معرفة حقيقة تزكية النفس:

تزكية النفس تتألف من شقين: تخلية وتحلية، أو نقول: هي: تخلُّقٌ وتحقُّقٌ وتطهير، وعلى هذا فمعرفة زكاة النفس وسيلة من وسائل تزكيتها لأنه بلا معرفة ذلك لا تتم التزكية، فالعلم يسبق العمل عادة.

وتزكية النفس تعني باختصار تطهيرها من الشرك وما يتفرع عنه، وتحقيقها بالتوحيد وما يتفرع عنه، وتخلقها بأسماء الله الحسنى مع العبودية الكاملة لله بالتحرر من دعوى الربوبية، وكل ذلك بالاقتداء برسول الله ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاء وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(النور: ٢١)، جاءت هذه الآية بعد قصة الإفك وبعد الآيات التي نهت عن إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا وبعد النهي عن اتباع خطوات الشيطان، وجاءت قبل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(سورة النور: ٢٢).

وذلك يؤكد ما يأتي:

١- أن موانع التزكية من القوة بحيث تستحيل التزكية بوجودها لولا فضل الله، وهذا يقتضي شيئين: بذل الجهد في التزكية، وسؤال الله إياها والاعتماد عليه فيها، وفي الحديث: ((اللهم آت نفسي

تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها))[1].

٢- أن من تزكية النفس العفو والصفح عمن أساء إلينا لأن الأمر جاء بمناسبة الحديث عن مسطح بن أثاثة الذي كان ينفق عليه أبو بكرﷺ والذي خاض في الإفك فمنع عنه أبو بكر عطاءه وإعانته فجاءت الآية واعظة، وفَاءَ أبو بكر إلى سيرته وما أرقاه من مقام!!.

٣- أن من تزكية النفس عدم اتباع خطوات الشيطان لأنه يأمر بالفحشاء والمنكر، إذن فالتزكية تعني تجنب الفحشاء والمنكر وتجنب خطوات الشيطان وأولى خطواته الحسد والكبر، فقد حسدَ آدم وتكبر عن السجود له.

٤- عدم محبة إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا وعدم السير في ذلك الطريق بشكل مباشر أو غير مباشر.

٥- إمساك اللسان عن الأَعراض وترك المشاركة في كل ما يؤذيها إلا في حالة الشهادة وما إلى ذلك.

هذه القضايا الخمس لها صلة بالتزكية نأخذها من موضع واحد من القرآن، فالتزكية باب واسع، وهناك تداخل في موضوعات التزكية بين الوسائل والغايات والآثار فكلها تزكية وتشهد لذلك هذه الآيات... ولسهولة العرض يمكن تقسيمها كما يلي:

أولا: هناك نجاسات قلبية ونفسية سببها الشرك وما يتفرع عنه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾(التوبة: ٢٨)، وقال: ﴿وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا

١- صحيح مسلم (٤ / ٢٠٨٨)، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، رقم (٢٧٢٢).

لَهَا مِن قَرَارٍ﴾(إبراهيم: ٢٦)، فشجرة الشرك تتفرع عنها أغصان كثيرة من العبودية لغير الله إلى الانحرافات في الطرق الضالة إلى الأخلاق الفاسدة من عجب وكبر وحسد وطاعة للطواغيت، فأول ما يدخل في التزكية تطهير القلب من الشرك وما يتفرّع عنه.

ثانياً: يمكن أن يدخل القلب والنفس في ظلمات شتى: ظلمات النفاق والكفر والفسوق والبدعة، ظلمات الحيرة والاضطراب، ظلمات المعاصي والذنوب والآثام، فمما يدخل في التزكية تنور القلب بنور الهداية الربانية، ويرى الأشياء على ضوء ذلك:

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾(الأحزاب: ٤٣)، ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾(البقرة: ٢٥٧)، ﴿قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾(الأنعام: ١٠٤).

وقد وصف الله المنافقين بقوله:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ﴾ (١٧) سورة البقرة ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾(سورة البقرة: ١٨).

ووصف الله الكافرين بقوله:

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾(النور: ٤٠).

فالصمم عن سماع الحق وعدم قبوله، والعمى عن رؤية الطريق إلى الله وعدم سلوكه، والصمت عن نصرة الحق وإعلانُ قبوله هي مظاهر

ظلمة القلب والنفس، فمما يدخل في تزكية النفس الخروج من الظلمات.

ثالثاً: للنفس شهواتها، وهذه الشهوات كثيرة منها الحسي ومنها المعنوي، فمن شهواتها الحسية حبُّ الطعام والشراب، ومن شهواتها المعنوية حب الانتقام، والرغبة في الانتصار، وحب الجاه والظهور، والرغبة في التفرد. وبعض شهوات النفس مباحة إذا سلك الإنسان لقضائها طريقاً مشروعاً كالزواج لقضاء الشهوة الجنسية، وبعضها محرم في أصله أو إذا سلك الإنسان له طريقاً غير مباح، فمما يدخل في تزكية النفس تطهيرها من شهواتها المحرمة أو تطهيرها من السلوك المحرم لقضاء الشهوات.

رابعاً: والنفس والقلب يمرضان كما تمرض الأجساد فتصاب النفس بأمراض العجب والكبر والغرور والحسد والحقد والغلّ فمما يدخل في تزكية النفس تطهيرها من هذه الأمراض.

خامساً: والنفس تتأثّر بالبيئة وبالتلقين وبالهواجس والوساوس، وكأثرٍ عن ذلك قد تتبع الشيطان أو تأخذ النِّحلَ الضّالة، فمما يدخل في تزكية الأنفس عدم اتباعها الشيطان وأئمة الضلال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(البقرة: ١٦٨)، ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾(الفاتحة: ٦-٧).

ومما يدخل في التطهير تطهير النفس عمّا ينافي الفطرة، وأصل الفطرة العبودية لله تعالى، ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾(الأعراف: ١٧٢)

فهذه هي الفطرة: العبودية لله التي مظهرها الرئيس قبول هداية الله عز وجل التي بعث بها الرسل عليهم الصلاة والسلام، وعلى هذا فالفطرة تحقُّقُ النفس بالعبودية لله التي هي أثر من آثار معرفة الله عز وجل والتي تستتبع الخوف من الله والرجاء منه واتقاؤه، وشكره، وعبادته، والإخلاص له، والصدق معه والصبر على بلواه وتكاليفه والمحبة له والزهد فيما يشغل عنه.

ومما يدخل في التطهر التخلق بأسماء الله تعالى، والاقتداء برسول الله ﷺ:

فلله تعالى المثل الأعلى وله الأسماء الحسنى، وقد خلق الإنسان ونفخ فيه من روحه، أي نفخ فيه روحاً مخلوقة نسبها إلى ذاته تعالى تشريفاً لها، وبهذه النفخة وُجِدَ عند الإنسان استعدادٌ للتخلق بأسماء الله، ومن ثم كان عنده استعداد للرحمة والانتقام والكبرياء والعلو وغير ذلك من معاني أسماء الله تعالى، والإنسان في هذا المقام مكلف بشيئين:

الشيء الأول: أن يجاهد نفسه فلا تقترب من الأسماء التي تقتضيها الربوبية، فالعظمة والكبرياء مثلاً لا يصح أن يقترب منها العبد المؤمن.

قال عليه الصلاة والسلام: في الحديث القدسي عن الله تعالى: ((الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في واحدة منهما قذفته في النار..)) [١]

الشيء الثاني: أن يقتصر على التسمي بالأسماء التي يجوز التخلق بها أو يجب على مقتضى العبودية والتكليف، فالرحمة والكرم والجود والرأفة والحلم والانتقام والعزة، كل ذلك يجب أن يكون الإنسان فيه على

١- صحيح ابن حبان (٢ / ٣٦)، رقم الحديث (٣٢٨).

مقتضى التكليف.

والتزكية من بدايتها إلى نهايتها لا تخرج عن مقام العبودية، وكل ما يقال فيها يدور حول هذا المعنى، وأعلى الخلق في مقام العبودية هم رسل الله وعلى رأسهم سيدهم وخاتمهم محمد ﷺ، فالعبودية الكاملة هي الاقتداء به، فهذه هي التزكية في النهاية، وراثة رسول الله ﷺ بأن نأخذ الكتاب والسنة بقوّة فهماً وعملاً، وأن نكون على الحال الذي كان عليه ﷺ من خشوع وتوكّل وغير ذلك.

المبحث الثاني

المحاسبة والمراقبة والمجاهدة:

إن النفس والقلب يحتاجان إلى تعاهد يومي، وما لم يتعاهد الإنسان نفسه يجدها قد شردت كثيراً، كما يجد قلبه قد قسا وغفل، ومن هنا يمكن اعتبار المحاسبة والمراقبة والمجاهدة من وسائل تزكية النفس.

وإليك بيان هذه الوسائل:

أ – المحاسبة:

إنَّ من أبرز الوسائل التي ينبغي على العبد أن يداوم عليها ليترقى في مقامات التزكية أن يحاسب نفسه وينظر في أعماله، فما وجد من خير حمد الله عليه وعزم على المزيد منه، وما وجد من سوء ندم عليه وسارع إلى التوبة منه توبة صادقة.

ومحاسبة النفس تعني النظر والتأمل فيما عمل من أعمال، وما قدم من خير أو شر، مع النظر في النية والقصد وحساب الربح والخسارة فيما كان منه، وليكون إعداداً لما يستقبل من أيامه بعزم جديد على الاستقامة، وبهذا تشمل المحاسبة الماضي والحاضر والمستقبل.

١ – الأدلة على ضرورة محاسبة النفس:

وردت أدلة كثيرة من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف الصالح في التأكيد على محاسبة النفس وبيان أهميتها وآثارها النافعة في التزكية. ومن هذه الأدلة:

١) قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ

لغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(الحشر: ١٨).

قال الإمام ابن القيم: (هذه الآية تدل على وجوب محاسبة)[١]، وقال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم.. واعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم ولا تخفى عليه منكم خافية)[٢]

٢) وعن أبي يعلى شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((الكيس [الكيس هو العاقل] من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها، وتمنى على الله))[٣]

قال الإمام الترمذي: معنى دان نفسه، أي: حاسبها في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة [٤]

٣) وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ((حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية))[٥]

٤) ومن آثار السلف الصالح رحمهم الله في وجوب المحاسبة وأهميتها:

- قول الحسن البصري رحمه الله: ((إن العبد لا يزال بخير ما كان

١- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم (٨٤/١).

٢- تفسير ابن كثير (٣٦٥/٤-٣٦٦).

٣- رواه الترمذي-كتاب صفة القيامة والرقائق والورع-باب ٢٥-حديث رقم (٢٤٥٩) وقال حديث.

٤- سنن الترمذي (٥٥٠/٤).

٥- رواه الإمام أحمد في كتابه الزهد ص١٧٧، وأورده الترمذي في سننه (٥٥٠/٤)، وابن الجوزي في صفة الصفوة (٢٨٦/١)، وابن القيم في إغاثة اللهفان (٧٨/١).

له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته))[1]

- وقول ميمون بن مهران: ((لا يكون الرجل تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه))[2].

٢ - بواعث محاسبة النفس:

هناك أمور تعين على هذه المحاسبة وتقوِّي بواعثها في النفس، ومن أبرزها:

١ - استشعار رقابة الله على العبد واطلاعه على خفاياه:

إن الله سبحانه لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى، وهو مطلع على السرائر، يعلم ما توسوس به الأنفس، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، واستشعار هذه الرقابة الربانية كفيل أن يوقظ المسلم من غفلته ويجعله في خشية دائمة من سوء أعماله ويقوي إرادته على محاسبة نفسه ومجاهدتها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ. إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ. مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(ق: ١٦-١٨)، وقال عز وجل: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(البقرة: ٢٣٥).

٢ - تذكر الحساب الأكبر والسؤال يوم القيامة:

إن الحقيقة التي ينبغي على المسلم ألاّ يغفل عنها هي أن الله سبحانه

١- إغاثة اللهفان (١/٧٨).

٢- إغاثة اللهفان (١/٧٩).

سيحاسب العباد يوم القيامة وسيسألهم عما قدموا من خير أو شر، ويومئذ تحل بالكفرة والعصاة الندامة والحسرة، ويجد الإنسان أعماله وقد أحصيت عليه لا يغيب منها شئ ولو كان مثقال ذرة.

وقد تظافرت الآيات القرآنية في بيان تصوير مشاهد الحساب وأهواله بصورة تهز أعماق النفس، وتحث المسلم أن يبادر إلى محاسبة نفسه وتصحيح أخطائها وكشف بواطنها لينجو من مواقف الخزي يوم القيامة ويحظى برحمة الله وسعة فضله فيكون من الفائزين.

ينبغي للمسلم أن يستحضر في نفسه وهو يحاسبها مشاهد القيامة من حساب وجزاء، ويتصور عوالم القيامة وأهوالها من حشر وصراط وجنة ونار، وبذلك تخشع وتستجيب للمحاسبة راضية راغبة.

٣ – مطالعة سيرة الرسول ﷺ وأصحابه والسلف الصالح:

لا شك أن من أعظم الوسائل العملية في تزكية النفس أن يطالع العبد سيرة الرسول ﷺ وأصحابه الكرام والسلف الصالح، ويرى اجتهادهم في العبادة ومسارعتهم إلى نيل رضا الله، وبذلك يرى نفسه مقصراً مهما بذل من الطاعات فيسارع إلى محاسبة نفسه على كل عمل يعمله، وكل وقت يضيعه، ليلحق بالسابقين ويسير في ركابهم.

ب – المراقبة:

من الضروري للإنسان المؤمن أن يراقب الله تعالى في كل ما يقوم به من قول وعمل وصمت وترك.

ولا ترقى روح المؤمن وتزكو نفسه وتصفو من الأكدار إلا بأن تراقب الله تعالى كما يراقبها سبحانه وتعالى.

وإذا راقب الإنسان ربه تركت فيه هذه المراقبة أحسن الآثار، لأنها تولد في نفسه حب الله وحب التقرب إليه، وتعلمه أن يخاف الله ويخاف من ارتكاب معاصيه.

وقد عرف الإمام ابن القيم ((المراقبة))، فقال: (المراقبة دوام علم العبد، وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه)[1]

فيكون من معاني هذه المراقبة أن يصحح الإنسان نيته، وأن يطهرها من كل ما يغضب الله، وإذا حسنت النية حسن العمل.

ومن معاني المراقبة أن لا يأتي من العمل إلا ما يحبه الله ويرضاه، والقاعدة العامة في ذلك هي أن الله تعالى يحب أن يجد عبده حيث أمره، ويفقده حيث نهاه.

ومن معاني مراقبة الإنسان ربه أن يسرع إلى الندم والتوبة إن ارتكب خطيئة أو وقع في معصية.

١) الأدلة على ضرورة المراقبة:

١ يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(النساء: ١)، ويقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ. وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾(المعارج: ٣٢-٣٣).

٢ وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((الإحسان

١- مدارج السالكين لابن القيم (٢/٦٥).

أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك))[1]

٢) نتائج مراقبة العبد لربه:

إن من راقب الله تبارك وتعالى في قوله وفعله، قادته تلك المراقبة إلى الحذر من الوقوع في الخطأ، وإلى وقاية نفسه من كل ما يغضب الله تعالى، في عمله كله. ويكون من نتيجة ذلك:

أولاً: إن تربية النفس على ذلك تولد فيها التقوى، وتقوى الله تعالى مفتاح كل خير ومغلاق كل شر.

ثانياً: إن تربية النفس على هذه التقوى تولد فيها الشعور بأن للإيمان والتقوى حلاوة، وأن مراقبة الله تعالى هي التي تعطي هذا الشعور.

ثالثاً: إن تربية النفس على مراقبة الله تعالى تحمل الإنسان على الإحسان في كل عمل يقوم به، ولكل إنسان يتعامل معه، لأن الله تعالى كتب الإحسان في كل شئ[2]

جـ - المجاهدة:

من أعظم وسائل التزكية أن يجاهد العبد نفسه حتى تستقيم على شرع الله سبحانه.

ونقصد بالمجاهدة: ضبط النفس والتحكم فيها لتسير في طريق

١- صحيح مسلم- كتاب الإيمان- باب الإيمان والإسلام والإحسان (١/٣٧،٣٦)- رقم الحديث(٨).

٢- التربية الروحية-د. علي عبد الحليم محمود /ص٢٠٥-٢١٢، ط ١٤١٥هـ ١٩٩٥م/دار التوزيع والنشر الإسلامية.

صلاحها وسعادتها، وتعتصم بحبل ربها[1] والجهاد يشمل مجاهدة العدو الداخلي والخارجي، ولا شك أن النفس عندما تكون أمارة بالسوء فهي عدوة لصاحبها وخطرها أشد من خطر العدو الخارجي، لأنها لا تقتصر في إهلاكها لصاحبها على إيقاع الضرر به في دنياه، وإنما تجعله يخسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

وبذلك يتبين أن المجاهدة شاقة على النفس، وأن هذه المشقة تزداد كلما ازدادت عداوة النفس لصاحبها وتحكم الأهواء فيها، ولذلك كان لزاماً على العبد أن يتحلى بالصبر والمصابرة ليفلح في مجاهدة نفسه والتغلب عليها.

١) الأدلة على وجوب وفضل مجاهدة النفس:

تظافرت الأدلة من الكتاب والسنة على وجوب مجاهدة النفس وإلزامها بشرع الله القويم، ومن هذه الأدلة:

١- قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(الحج: ٧٨).

إن من أبرز ما تأمر به هذه الآية الكريمة مجاهدة النفس التي هي أساس لكل مجاهدة، ولذلك قال الإمام عبدالله بن المبارك في تفسيره لهذه

١- ينظر في ظلال القرآن (٤/٢٤٤٦).

الآية: (حق جهاده: مجاهدة النفس والهوى)[1]

٢ – قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(العنكبوت: ٦٩).

علق الإمام ابن القيم على هذه الآية فقال: (علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوى وجهاد الشيطان وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد، قال الجنيد: (والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص).

ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد أولئك الأعداء باطناً، فمن انتصر عليها انتصر على عدوه، ومن انتصرت عليه انتصر عليه عدوه)[2].

٣ – وأما الأحاديث النبوية في الباب فكثيرة، ومن أبرزها:

عن فضالة بن عبيد ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((المجاهد مَنْ جاهد نفسه في الله عز وجل))[3]

١- تفسير الفخر الرازي (٧٣/١٢).

٢- الفوائد لابن القيم ص٥٩.

٣- رواه الترمذي-كتاب فضائل الجهاد-باب في فضل من مات مرابطاً-رقم (١٦٢١)،وقال حسن صحيح، والإمام أحمد في مسنده (٢١/٦)، والحاكم في المستدرك (١٠/١) وصححه ووافقه الذهبي.

٢) طريقة المجاهدة والعوامل الميسرة لها:

لما أمر الله سبحانه عباده بمجاهدة النفس وتزكيتها، يسر لهم سبل تلك المجاهدة وأوضح معالمها وأرشد إلى ما يسهلها.

ويمكن إيضاح طريقة المجاهدة والعوامل المساعدة والميسرة لها من خلال الوصايا التالية:

١- المداومة على العمل الصالح:

العمل الصالح هو الذي يمد العبد بالهمة على مجاهدة نفسه ويبعد الغفلة عن قلبه، وكلما ازداد تمسك المسلم بالفرائض ومسارعته إلى النوافل كان ذلك زاداً له على طريق المجاهدة وغذاء يشحن قلبه بالعزم والتصميم على مواصلة الطريق.

وما دام العبد مداوماً على العمل الصالح فإنه قادر على مجاهدة نفسه والتغلب عليها. ولذلك أرشدنا رسول الله ﷺ إلى أن القليل الدائم من العمل خير من الكثير المنقطع. فعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله ﷺ: ((أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل))[١]

٢- البعد عن مواطن المعاصي:

المعاصي كالأمراض المعدية فمَن جالس أهلها أو خالطهم لا بد أن يتأثر بهم ولو بعد حين، ولذلك يجب على العبد الذي يسلك طريق المجاهدة أن يلزم نفسه بالابتعاد عن كل ما يجر إلى المعاصي أو يذكر بها، وبخاصة رفاق السوء ومجالس اللهو ومواطن المنكرات، كما يجب عليه أن يتلف كل ما لديه من وسائل المعاصي كآلات اللهو وأشرطة الغناء والأفلام والصور الماجنة لأن هذه المنكرات مادامت قريبة منه فهي

١- رواه مسلم في صلاة المسافرين- باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره-رقم (٧٨٢).

أسلحة بيد النفس الأمارة بالسوء والشيطان المتربص، وهي كالوقود إذا وضع بجانب لهب النار سرعان ما يشتد اشتعاله فيدمر ويهلك.

٣- التدرج في مجاهدة النفس:

العزم الأكيد على المبادرة إلى جهاد النفس وعدم التسويف في ذلك، ولا يعني ذلك أن يجاهد العبد نفسه الأمارة في ساعة من الزمن، كأنه يريد أن ينقضَّ عليها انقضاضاً حتى تتخلى عن جميع الصفات المذمومة وتتحلى بالخصال المحمودة دفعة واحدة، فإن هذا مخالف لطبيعة البشر، وبخاصة أن كثيراً من العادات والأفعال السيئة عندما يمارسها الإنسان مدة طويلة من الزمن فإنها تصبح ثابتة في النفس مستقرة فيها، ولابد من إرادة قوية وجهد متواصل وتدريب متكرر حتى تتخلى عنها، وتتحول من الشغف والتعلق بها إلى النفور منها والكراهية لها.

وهذا الأسلوب الحكيم في مجاهدة النفس حتى تتحول من محبة المعصية إلى كراهيتها، هو الأسلوب الذي حرم به الإسلام الخمر والربا وغيرها من المنكرات التي كانت متأصلة في النفوس حتى سارع الصحابة رضي الله عنهم إلى سكب ما لديهم من الخمر في طرقات المدينة بعد أن كانوا قبل الإسلام لا يصبرون على فراقها.

ولا شك أن النفس الأمارة عدو متربص ولا يتم التغلب عليها إلا بالثبات وطول المجاهدة وترسيخ الإيمان وزيادة الصبر حتى تذل وتقنع.

٤- معاقبة النفس والتشديد عليها:

إذا رأى المسلم من نفسه ميلاً إلى المعاصي وتقصيراً في الطاعات ولم تطاوعه نفسه على سلوك طريق الحق، فليبادر إلى معاقبتها بعقوبة

مشروعة حتى تنـــزجر وتستقيم، كما يعاقب الأب ولده العاصي لتأديبه وتربيته، فالنفس أحق بالعقوبة والتأديب من الولد ونحوه.

وأنفع العقوبات ما كان عملاً صالحاً من الأعمال التي تشق على النفس كالصدقة وصيام عدة أيام وقيام ساعات من الليل، وذلك يختلف بحسب اختلاف النفوس وقوة صبرها.

فعلى سبيل المثال: إن ضيَّع صلاة الفجر بسبب مشقة الاستيقاض وترك لذيذ المنام فليقم بإحياء ساعات من إحدى الليالي يهجر فيها مضجعه، وإن قصر في حق غيره بخلاً بالمال فليتصدق ليلزم نفسه بالإقلاع عن ترك الآفة.

فالتشديد على النفس ومنعها مما تحب لفترة محددة ترويضٌ لها وتليين لطبعها وعلاج لأمراضها، وهو بمنـــزلة الدواء المرّ الذي يشربه المريض وهو كارهٌ له رجاء أن يكون سبباً في الشفاء بإذن الله.

٥- ترويح النفس:

كثرة المجاهدة والاشتغال بتأديب النفس وموعظتها قد يؤدي إلى السآمة والملل، ولذلك لابد من ترويحها بين الحين والآخر ببعض المباحات للتقوّي بها على الطاعات. ودليل ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعودﷺ قال: ((كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهةَ السآمة علينا))[١]

وروى البخاري عن أبي هريرةﷺ عن النبي ﷺ قال: ((إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا،

١- رواه الإمام البخاري- كتاب العلم- باب ما كان ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم (١/٢٥)، ورواه مسلم كتاب صفات المنافقين- باب الاقتصاد في الموعظة-رقم (٢٨٢١).

واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُلجة))[1]

وما أحسن قول الإمام ابن الجوزي رحمه الله وهو يبين أهمية ترويح النفس ومداراتها فيقول: ((رُبَّ شدٍّ أوجب استرخاء، ورُبَّ مُضَيِّقٍ على نفسه فَرَّت منه فصعب عليه تلافيها، وإن الجهاد لها كجهاد المريض العاقل، يحملها على مكروهها في تناول ما ترجو من العافية، ويذوب في المرارة قليلاً من الحلاوة.. فكذلك المؤمن العاقل لا يترك لجامها ولا يهمل مقودها، بل ليرخي لها في وقت والطول بيده، فما دامت على الجادة لم يضايقها في التضييق عليها، فإذا رآها قد مالت رَدَّها باللطف، فإن وَنتْ [أي ضعفت] وأبتْ فبالعنف))[2]

١- رواه الإمام البخاري- كتاب الإيمان- باب الدين يسر- (١/١٥).

٢- صيد الخاطر لابن الجوزي – ص (٧٠).

المبحث الثالث

العمل الصالح:

لقد حفلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بالتأكيد على أهمية العمل الصالح لتزكية النفس والسمو بها إلى المنزلة العالية والمقام العظيم، وتحقيق السعادة في الدارين.

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾(فاطر: ١٠).

وروى مسلم عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأن أو تملأ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك،كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها))[١]

وقد دلّ هذا الحديث على أن العمل الصالح يزكي النفس ويطهرها، وأنّ كُلّ إنسان إمّا أن يسعى في هلاك نفسه أو في نجاها، فمن سعى في طاعة الله فقد باع نفسه لله واعتقها من عذابه، ومن سعى في معصيته فقد باع نفسه بالهوان وأوبقها بالآثام الموجبَة لغضب الله وعقابه[٢]

فمن أراد أن يعتق نفسه من أسر شهواها ويخلصها من آفاها

١- رواه مسلم- كتاب الطهارة – باب فضل الوضوء – رقم (٢٢٣).

٢- جامع العلوم والحكم – للإمام ابن رجب الحنبلي – ص ١٩٣.

وأمراضها، ويتحرر من العبودية لها، ويحظى بالعتق من النار يوم القيامة، فليكن غدوُّه ورواحه في جميع شؤونه وأحواله مستنداً إلى دين الله، مسترشداً بهداه[1]

وسأعرض أبرز الأعمال الصالحة التي تُعدُّ معالم على طريق التزكية، وهي أركان الإسلام وما يتصل بها من نوافل كالصدقة والذكر والدعاء وتلاوة القرآن الكريم.

أ- الصلاة:

تأتي الصلاة في مقدمة العبادات التي لها أثر عظيم في تقوية إيمان المسلم وتربيته وتحقيق عبوديته لربه عز وجل.

ولكن هناك شروطاً لابد من تحقيقها لكي تؤدي الصلاة دورها في تزكية النفس.من أهمها شرطان:

الشرط الأول: إتمام الصلاة وإتقانها والمحافظة عليها وعدم التهاون فيها، مع أدائها على الوجه المطلوب من حيث الإخلاص والمتابعة للكتاب والسُّنَّة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا. وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا. إِلَّا الْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾(المعارج: ١٩-٢٣)، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (الماعون: ٤-٥).

الشرط الثاني: الخشوع في الصلاة:

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ

١- منهج الإسلام في تزكية النفس (١ / ٢٠٧).

خَاشِعُونَ﴾(المؤمنون: ١-٢) فالخشوع في الصلاة هو المظهر الأرقى لصحة القلب وتزكية النفس، واستجلاب الخشوع هو الذي يصلح القلب ويمنح الصلاة ثمراتها في التزكية.

- **ومن أبرز آثار الصلاة في مجال تزكية النفس ما يلي:**

١) الاستجابة لأمر الله تعالى وإظهار العبودية له سبحانه:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (سورة الشورى: ٣٨).

٢) مناجاة العبد لربه:

فهي معراج روحي تسمو به روح المؤمن. وهذا ما جاء في الحديث الذي رواه أنس ابن مالك ﷺ قال: قال النبي ﷺ: ((إن المؤمن إذا كان في الصلاة فإنما يناجي ربه))[١]

٣) طمأنينة النفس وراحتها:

يقول الله تعالى موجهاً عباده إلى أهمية الصلاة في تحقيق الراحة النفسية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(البقرة: ١٥٣).

وعن حذيفة ﷺ قال: ((كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى))[٢] وكان الرسول ﷺ يقول: ((قم يا بلال فأرحنا بالصلاة))[٣]

رواه البخاري --كتاب الصلاة (١/ ١٠٧)، ومسلم- كتاب المساجد-رقم (٥٥١).

رواه أبو داود رقم (٤٩٦٤)، ورواه الإمام أحمد (٤/٣٦٤)، وغيرهما.

٣- رواه أبو داود رقم (٤٩٦٤)، ورواه الإمام أحمد(٤ ٣٦٤)، وغيرهما.

٤) الصلاة حاجز بين العبد والمعاصي:

قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾(العنكبوت: ٤٥).

٥) الصلاة مكفرة للسيئات وترفع الدرجات:

عن سلمان رضي الله عنه أن رسول ﷺ أخذ غصناً يابساً فهزه حتى تحات ورقه، فقال: يا سلمان ألا تسألني لم أفعل هذا ؟ قلت: ولم تفعله؟ قال: ((إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم صلى الصلوات الخمس، تحاتت خطاياه كما تحاتّ هذا الورق، وقرأ: (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين)[1]

٦) الصلاة تدريب عملي على مجاهدة النفس:

إذا أراد العبد أن يعود نفسه على الطاعات ويجاهدها حتى يروضها ويكبح من جماحها فعليه أن يكثر من الصلوات ويحافظ على النوافل ويحرص على التبكير إلى المساجد وإسباغ الوضوء على المكاره والبرد الشديد الذي يشق على النفس، وغير ذلك من الأعمال المتعلقة بالصلاة التي تكبح جماح النفس، طمعاً في التقرب من الله سبحانه وتكفير الذنوب ورفع الدرجات.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد،

١- هود: ١١٤، رواه أحمد في مسنده (٥/٤، ٢٣٧/٧٠٠).

وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط))[1]

٧) الصلاة تطهر النفس من الأنانية والأحقاد:

الصلاة في خصوصيتها – إذا أُديت كاملة – فإنها تغرس في نفس صاحبها ذل العبودية لله وحده وعزة المؤمن القريب من مولاه، فلا يتكبر على مسلم ولا يحقد على غيره لأنه غني بالله سبحانه.

كما أن الصلاة في المسجد تحقق التعارف والتآلف بين المصلين، وتطهر النفس من أنانيتها وتنـزع آفة التكبر والعجب منها.

وهذا اللقاء المتكرر يزيد الألفة ويقوي روابط الأخوة ويوثق العلاقات الاجتماعية ويحقق التعاون ويزيل الفوارق المادية بين المسلمين.

ب- الصيام:

فرض الله تعالى الصيام على هذه الأمة وجعله ركناً من أركان الإسلام، كما فرضه على الأمم السابقة، وفي ذلك تأكيد على أهمية هذه العبادة الجليلة ومكانتها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة: ١٨٣).

وقد أوضحت الآية الكريمة الثمرة العظمى التي يحظى بها الصائمون المخلصون، ألا وهي بلوغ درجة التقوى: (لعلكم تتقون)، فالصيام مدرسة فريدة، ودورة تدريبية للنفس، حتى تتخلع من آفاتها وتتحلى بالفضائل، وترتقي في مدارج التقوى والصلاح.

١- رواه مسلم – كتاب الطهارة- باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره-رقم (٢٥١).

● **ولكي يؤدي الصيام دوره في تزكية النفس لا بد أن يتحقق فيه شرطان:**

الشرط الأول: أن يصوم المرء إيماناً واحتساباً:

جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه))[١]

الشرط الثاني: الابتعاد عن المعاصي:

جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: ((من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه))[٢]

● **أبرز آثار الصيام في مجال تزكية النفس وتهذيبها:**

١- تدريب النفس على كمال العبودية لله سبحانه:

روى الشيخان عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله سبحانه إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشهوته من أجلي))[٣]

٢- تقوية الإرادة والتدريب على الصبر:

جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((والصيام جنة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن

١- رواه البخاري في الصوم - باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً (٢/٢٢٨).

٢- رواه البخاري في الصوم - باب من لم يدع قول الزور والعمل به (٢/٢٢٨).

٣- رواه البخاري في الصوم - باب فضل الصوم (٢/٢٢٦)، وباب هل يقول إني صائم إذا شُتم (٢/٢٢٨)، ورواه مسلم في الصيام - باب فضل الصيام - رقم (١١٥١)(٦٤) واللفظ لمسلم.

سابه أحد أو قاتله فليقل: إني صائم))[1]

٣- التدريب على مجاهدة النفس:

قال رسول الله ﷺ: ((من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء))[2]، أي قاطع للشهوة.

وفي حديث سابق: ((الصيام جنة))، أي وقاية من المعاصي.

٤ – معرفة قيمة النِّعَم:

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ((كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل))[3]

وإذا كان صيام رمضان يغرس في النفس كل هذه المعاني ويسموا بها إلى الأعالي، فإن صيام النفل يزيد على ذلك بأمور عديدة من أبرزها:

- أنه صيام اختاري، فإذا بادر إليه فهذه علامة على تقوى القلب والحرص على الأجر من الله سبحانه.
- عندما يكون صائماً بين مفطرين تكون مجاهدته لنفسه لإكمال الصوم أكبر، لأنه يُلزمها بأمر يسعها ألا تُقدم عليه.
- بصيام النفل سيتذكر المسلم كثيراً من النوافل الأخرى التي ينال بها أجراً عظيماً ولا تتطلب جهداً كبيراً، كصلاة الضحى وقيام جزء من الليل وتلاوة القرآن وغيرها من العبادات، فيبادر إليها دون تردد، ويقوم بها دون أن يُحس بثقلٍ أو ملل.

١- رواه البخاري في الصوم – باب هل يقول إني صائم إذا شتم (٢/٢٢٨).

٢- رواه البخاري في الصوم – باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة (٢/٢٢٨).

٣- رواه البخاري في الصوم باب أجود ما كان النبي ﷺ يكون في رمضان – (٢/١١٨).

- وهي عبادة متاحة طيلة أيام السنة، وبذلك يمكن للمسلم أن يبادر إليها كلما أحس بقسوة في قلبه وحاجة لترويض نفسه ورغبة في المزيد من الأجر والفضل عند الله سبحانه وتعالى.

ج- الزكاة والصدقات:

الزكاة ركن من أركان الإسلام، وهي اسم لما يجب على المسلم أن يخرجه من ماله إلى الفقراء بالشروط التي حددها الإسلام، وسميت زكاة لما فيها من رجاء البركة وتزكية النفس وتنميتها بالخيرات، فاللفظ مأخوذ من الزكاء وهو النماء والطهارة والبركة.

قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(التوبة: ١٠٣).

ولكن هناك شروطاً لابد من تحققها لكي تؤدي الزكاة والصدقات دورها في تزكية النفس، من أهمها:

الشرط الأول: البعد عن الرياء والتباهي والمن على الفقراء:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(البقرة: ٢٦٤).

الشرط الثاني: أن ينفق مما يحب وليس مما يكره، وأن تكون نفسه راضية غير كارهة، وأن ينفق من الكسب الطيب.

قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾(آل عمران: ٩٢)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ

أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾(البقرة: ٢٦٧).

● **ومن أبرز آثار الزكاة والصدقات في تزكية النفس:**

١ - الزكاة اختبار عملي لاستجابة المؤمن لأمر ربه:

قال تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾(الحديد: ٧).

٢ - تطهير النفس من آفة الشح:

قال تعالى: ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾(محمد: ٣٨).

٣ - تطهير نفس الفقير وتزكيتها:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ. إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾(محمد: ٣٦- ٣٧).

٤ - شكر النعمة ومعرفة قدرها:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(إبراهيم: ٧).

وهكذا تؤدي الزكاة والصدقات دورها في تزكية النفس واستقامة السلوك وإصلاح الفرد والمجتمع.

د- الحج:

الحج ركن من أركان الإسلام، ويمتاز عن باقي الأركان بأنه عبادة

قلبية وبدنية ومالية، وأنه يجب في العمر مرة واحدة على المستطيع، وأن له مكاناً معيناً لا يؤدى إلا فيه وهو بيت الله الحرام والمشاعر المقدسة.

قال سبحانه: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ. لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾(الحج: ٢٧-٢٨).

قال ابن عباس ﷺ في تفسيره لهذه الآية: (ليشهدوا منافع لهم: أي منافع الدنيا والآخرة، أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البُدن والذبائح والتجارات)[١]

فالله سبحانه جعل منافع الحج تحقيق مصالح الدين والدنيا، وقد جاء اللفظ نكرة ليدل على كثرة المنافع وتجددها وتنوعها، ومن أبرزها تزكية النفس وتقويم السلوك وتغذية الروح بتلك الدورة التدريبية الإيمانية التي تقام في أقدس بقعة على وجه الأرض.

ولكي يحقق الحج دوره في تزكية النفس لابد أن تتوفر فيه شروط، من أهمها:

أولاً: الإخلاص لله وحده وتجنب الرياء والسمعة:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(الأنعام: ١٦٢-١٦٣).

ثانياً: تجنب الرفث والفسوق والجدال:

١- تفسير ابن كثير (٣/٢١٦).

قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾(البقرة: ١٩٧).

● آثار الحج وثمراته في تزكية النفس:

منذ أن يشرع الحاج في السفر وحتى يرجع إلى بيته بعد أدائه الحج، فإنه يدخل دورة تدريبية يجاهد فيها نفسه ويداوي عللها وينهض بها في مقامات التزكية، وهذه العبادة الجليلة تشبه في كثير من آثارها وثمراتها أركان الإسلام الأخرى كالصلاة والزكاة والصيام.

فالحج له شبه بالصوم لما فيه من الكف عن بعض محظورات الإحرام.. وله شبه بالصدقة لما فيه من بذل المال.. وله شبه بالصلاة لما فيه من الوقوف والطواف بالكعبة.

وبنظرة سريعة إلى أعمال الحج ومناسكه وآدابه نستخلص الآثار التالية في مجال تزكية النفس:

١ - الحج تدريب عملي على امتثال أمر الله سبحانه:

الحج بمناسكه وأركانه وأعماله، كله تمرين وتمثيل للإطاعة المطلقة، وامتثال للأمر المجرد.. كتقلب الحاج بين مرافقها لأداء المناسك، والقيام بكثير من أعمال الحج التي لا يدرك العقل المراد منها (كرمي الجمار وتقبيل الحجر الأسود و...)، واجتناب الحاج لمحظورات الإحرام وتجرده من المخيط وامتناعه عن كل ما تشتهيه النفس من الميل للنساء والرغبة في التطيب والتجمل بأنواع الثياب، كل ذلك إعلان عن الامتثال لأمر الله والخضوع والتذلل لله سبحانه.

٢- الحج غذاء للروح:

ينال العبد بالحج غذاء الروح وصفاء النفس بما يمنحه من شحنة إيمانية قوية، وبما يورثه من عاطفة متأججة نحو هذه الأماكن المقدسة التي تحن إليها القلوب وتهوي إليها الأفئدة.

وهذا مصداق لدعاء إبراهيم الخليل عليه السلام كما ورد في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(إبراهيم: ٣٧).

ولقد وجه الله تعالى عباده إلى الربط بين رحلة الحج والرحلة إلى الدار الآخرة بقوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾(البقرة: ١٩٧).

٣ - الحج جهاد للنفس وتدريب لها على تحمل المشاق:

جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (يا رسول الله: نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال: لا، لكن أفضل الجهاد حج مبرور)[١]

وقال عمر ﷺ: (شدوا الرحال في الحج فإنه أحد الجهادين)[٢]

٤- الحج علاج لأمراض النفس وآفاتها:

١- رواه البخاري في الحج-باب فضل الحج المبرور (٢-١٤١) وفي الجهاد باب فضل الجهاد (٣/٢٠٠).

٢ أورده البخاري معلقا في صحيحه كتاب الحج باب الحج على الرحل- (٢/١٤١).

ويتجلى ذلك في عدة أمور من أبرزها:

- تتطهر النفس من الشح من خلال ما يبذله من مال وينفقه على سفره وتنقله وما يتقرب به من هَدْي وذبائح.
- تصفو النفس وتتطهر من الحقد والأنانية والتكبر من خلال وحدة في المشاعر، ووحدة في الشعائر، ووحدة في الهدف[1]
- إن الله سبحانه يُكرم عباده الحجيج يوم عرفة بالمغفرة والرضوان وينزل عليهم الرحمات، فتُغسل قلوبهم من أدران المعاصي، وتصفو نفوسهم من أكدار الذنوب، ويندحر الشيطان خائباً، فتتحرر النفس من وساوسه.

ويلحق بالحج العمرة، وهي عبادة لها آثار عظيمة في تزكية النفس وتتميز عن الحج بأنها وسيلة متاحة طيلة أشهر السنة ولا تختص بوقت محدد، وهي سهلة الأداء ولا تستغرق وقتاً طويلاً، لأنها تشتمل على طواف وسعي وحلق بعد الإحرام، فكلما لاحظ المسلم من نفسه بُعْداً عن الله تعالى أو قسوةً في القلب فليسارع إلى أداء العمرة يُهَذِّب بها روحه ويُزَكّي نفسه ويجدد عزمه.

هـ- النوافل:

النوافل باب عظيم من أبواب الخير، وميدان كبير للمسابقة في الطاعات، ونعمة عظمى أكرم الله بها عباده ليزدادوا منه تقرباً ويحظوا بالرحمة والرضوان، ويزكّوا بها أنفسهم ويحيوا قلوبهم.

١- ينظر: العبادة في الإسلام للقرضاوي (ص٢٩٠).

ولقد جاء في الحديث القدسي الذي رواه البخاري عن أبي هريرةﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله عز وجل قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه))[1]

وسنقتصر في هذا الفصل على الحديث عن أربع من النوافل التي تعد من أعظم روافد التزكية وأجل وسائلها وهي: تلاوة القرآن الكريم، والذكر، والدعاء، وقيام الليل.

وقد تظافرت الأدلة من الكتاب والسنة على عظيم فضل هذه النوافل، والمترلة السامية التي يحظى بها أهلها وما يمنحهم الله تعالى من مضاعفة الأجر ورفع الدرجات، وأنها من أعظم أنواع التجارة الرابحة التي يكرم الله بها عباده بالأجر الجزيل على العمل اليسير.

- ففي فضل تلاوة القرآن الكريم: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ. لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾(فاطر: ٢٩-٣٠).

- وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (ألم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف))[2]

١- رواه الإمام البخاري- كتاب الرقائق- باب التواضع- (٧/ ١٩٠).

٢- رواه الترمذي-في فضائل القرآن- رقم (٢٩١٠)، وقال: حسن صحيح.

- ومن فضائل الذكر والحث عليه: قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾(البقرة: ١٥٢)، وقال تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب:٣٥)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم))[١]

- وفي فضائل الدعاء ومنـــزلته: قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة: ١٨٦)، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(غافر: ٦٠).

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، فقال رجل من القوم: إذاً نُكثر. قال: الله أكثر))[٢] أي: أكثر إحساناً مما تسألون، وفي رواية للحاكم: ((أو يدخر له من الأجر مثلها)).

- وفي فضائل قيام الليل والثناء على أهله: قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ. كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ

١- رواه الإمام البخاري- في الدعوات- باب فضل التسبيح- (١٦٨/٧)، ومسلم في الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح- رقم (٢٦٤٩).

٢- رواه الترمذي في الدعوات- باب انتظار الفرج- رقم (٣٥٧٢٣)، وقال حديث حسن صحيح- وصححه الحاكم (١/ ٤٩٣) ووافقه الذهبي.

يستَغْفِرُونَ ﴾(الذاريات: ١٥-١٨)، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل))[١].

- ولكي تحقق هذه النوافل دورها في تزكية النفس لابد أن يتوفر فيها ما يلي:

الشرط الأول: ترك الإصرار على المعاصي:

الإصرار على المعاصي والانغماس فيها له آثار سيئة على النفس والقلب، ولا يمكن للعبد أن يحظى بالقرب من الله وينال بركة الطاعات وثمرات العبادات وهو غافل عن ربه منغمس في المحرمات.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (إن الذنوب والمعاصي تضر، ولابد أن ضررها في القلب كضرر السمـــوم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة ضرر إلا سببه الذنوب والمعاصي؟)[٢]

ولهذا كان لا بد لمن أراد التقرب إلى الله تعالى بالنوافل ويزكي نفسه بها أن يتخلى عن المعاصي وبخاصة الكبائر حتى ينفتح القلب للطاعة ويحيى بها، ويوفق للإكثار منها، ويجد الهمة والنشاط في أدائها.

يقول الإمام ابن تيمية (رحمه الله) في بيانه الطريق الذي يزكو به القلب: (وكذلك ترك المعاصي، فإنها بمنـــزلة الأخلاط الرديئة في البدن، ومثل الدغل في الزرع.. وكذلك القلب إذا تاب من الذنوب كان استفراغاً من تخليطاته.. فتخلصت قوة القلب وإرادته من الأعمال

١- رواه مسلم في الصيام – باب فضل صوم المحرم- رقم ١١٦٣.

٢- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي- ص٤٣.

الصالحة واستراح القلب)[1]

الشرط الثاني: حضور القلب:

قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آياته وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾(ص: ٢٩).

لذلك ينبغي على العبد أن يتحلّى بالخشوع في ذكره وتلاوته للقرآن ويحضر قلبه ويبعد عنه الغفلة ليحصل له المقصود.

قال الإمام النووي: (المراد من الذكر حضور القلب، فينبغي أن يكون هو مقصود الذاكر فيحرص على تحصيله، ويتدبر ما يذكر، ويتعقل معناه) [2]

ولتحقيق الخشوع وحضور القلب ينبغي التركيز على أمور عديدة، من أبرزها:

أولاً: التدبر:

التدبر هو الفهم لما يتلوه من قرآن وما ينطق به من ذكر ودعاء ونحو ذلك ولو بشكل مجمل، والتأمل في معانيها ومراميها، وأن يقيس المسلم نفسه على ما يتلوه من الأوامر والنواهي ليجد حاله ويعرف تقصيره، وبذلك يستحضر خشية الله سبحانه ويخشع قلبه وتسكن جوارحه ويجتهد في الطاعة.

روى النسائي عن أبي ذر ﷺ قال: قام النبي ﷺ بآية يرددها حتى أصبح، وهي قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(المائدة: ١١٨).

١- مجموع الفتاوى (١٠/٩٦-٩٧).

٢- الأذكار للإمام النووي – ص٣٤.

ثانياً: البكاء:

البكاء هو صفة الخاشعين عند تلاوة القرآن الكريم أو سماع آياته، وعند ذكر ربهم أو دعائه، وعند الوقوف بين يدي مولاهم في الصلوات، فهو ثمرة للخشوع وحضور القلب، كما أنه طريق لتحقيق الخشوع وإيقاظ القلب.

قال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا. وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾(الإسراء: ١٠٧-١٠٩).

ثالثاً: اغتنام فترات النشاط والراحة:

جاء في الحديث عن عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يملّ حتى تملّوا))[١]، وعن جندب رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: ((اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا))[٢]

رابعاً: اغتنام الأوقات والأماكن الفاضلة:

عن جابر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ: ((إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله تعالى خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة))[٣]، وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قيل

١- رواه مسلم في صلاة المسافرين باب فضيلة العمل الدائم-رقم (٧٨٢).

٢- رواه البخاري في فضائل القرآن- باب اقرؤوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم- (٦/١١٥).

٣- رواه مسلم في صلاة المسافرين باب في الليل ساعة مستجاب فيه الدعاء رقم (٥٥٧).

لرسول الله ﷺ: أي الدعاء أسمع ؟ قال: ((جوف الليل الآخر ودُبر الصلوات المكتوبات))[1]

- آثار النوافل في تزكية النفس:

ومن أبرز آثار تلك النوافل التي تتصل بشكل مباشر بالتزكية:

١- المناجاة بين العبد وربه، وبلوغ مقام العبودية:

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة:١٥٢).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني. إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هم خير منهم، وإن تقرب مني شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منهم باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة))[2]

٢- غذاء القلب وزيادة الإيمان:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُون الَّذين إذَا ذُكر اللّهُ وجلَتْ قُلُوبُهُمْ وإذَا تُليَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(الأنفال: ٢)، وعن أنس ابن مالك ﷺ قال: ((كان عبدالله ابن رواحة إذا لقي الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: تعالى نؤمن بربنا ساعة، فقال ذات يوم لرجل فغضب الرجل، فجاء إلى النبي ﷺ: فقال يا رسول الله ألا ترى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة، فقال: يرحم الله ابن رواحة

رواه الترمذي في كتاب الدعوات - باب (٧٩) - رقم (٣٤٩٩) وقال: حديث حسن.

٢- رواه مسلم في الذكر والدعاء- باب الحث على ذكر الله تعالى - (٤ / ٢٠٦١)- رقم (٢٦٧٥).

إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة))[1]

وكذلك الذكر والدعاء وقيام الليل يغذي القلب ويزيد الإيمان ويوجه النفس إلى ما فيه صلاحها.

٣- شفاء النفس وغرس الطمأنينة فيها:

قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا﴾(الإسراء: ٨٢).

وقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(الرعد: ٢٨).

وقد روى الإمام أحمد عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ((عليكم بذكر الله فإنه شفاء،وإياكم وذكر الناس فإنه داء))[2]

وعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري (رضي الله عنهما) أنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: ((لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده))[3]

وفي ختام هذا الموضوع لابد من التأكيد على أن فضائل العبادات وآثارها في مجال تزكية النفس، لا يمكن أن تحيط بها صفحات ولا كتب، ولعل ما ذكرته يلقي بعض الضوء على هذه العبادات الجليلة ودورها العظيم في التزكية[4]

رواه الإمام أحمد في مسنده وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب(٢/٤٠٣).

كتاب الزهد- للإمام أحمد ابن حنبل - صفحة ١٧٩.

رواه مسلم في الذكر والدعاء- باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٢٠٧٤/٤)- رقم (٢٦٩٩).

٤- ينظر: منهج الإسلام في تزكية النفس (١/٢٠٣-٣٣٣).

المبحث الرابع

الإكثار من التفكر في خلق الله، والموت وأهوال القيامة:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ من شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾(الأعراف: ١٨٥)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩٠-١٩١).

من النص الثاني ندرك أن كمال العقل لا يكون إلا باجتماع الذكر والفكر في تزكية النفس ولذلك فقد حرص أهل السلوك إلى الله أن يجتمع للسالك في أول سيرة ذكر مع فكر، كأنْ يتفكر في الأشياء وهو يسبح الله أو يحمده أو يكبرها أو يوحده.

إن الذكر والفكر يعمقان معرفة الله في القلب وهي البداية لكل زكاة [١]، ومما ينبغي التفكر فيه ما يلي:

١ - التفكير في خلق الله.

٢- التفكير في الموت وأهوال القيامة وتذكرها.

المستخلص في تزكية الأنفس - ص ١١١.

أولاً: التفكر في المخلوقات:

لقد حفلت آيات القرآن الكريم بالدعوة إلى التفكير في خلق الله سبحانه واستخلاص الدروس والعبر منها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(العنكبوت: ٢٠)، وقوله سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(فصلت: ٥٣). وغير ذلك من الآيات.

ولكن الذي ينبغي التركيز عليه هنا هو الآيات القرآنية التي تدل على أن التفكر عبـــادة جليلة ووسيلة عملية لتزكية النفس والتوجه بها إلى خالقـــها، وقد ورد ذلك صريحا في قـــوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩٠-١٩١).

ولذلك كان الرسول ﷺ يحرص على قراءة هذه الآيات الكريمة في قيام الليل ليجمع بين الذكر والتفكر، ويرشد إلى أهمية ذلك في حضور القلب واستجلاب الخشوع.

روى مسلم: ((أن النبي ﷺ قام من آخر الليل فخرج فنظر إلى السماء، فتلا هذه الآية في سورة آل عمران: (إن في خلق السموات...) ثم رجع إلى البيت فتسوك وتوضأ، ثم قام فصلى، ثم اضطجع ثم قام فخرج فنظر إلى السماء، ثم تلا هذه الآية...))[1]

١- رواه مسلم- كتاب صلاة المسافرين- باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه-رقم (٧٦٣).

وفي حديث آخر عن ابن عمر ﷺ أنه دخل على عائشة (رضي الله عنها) مع بعض أصحابه وبينها وبينهم حجاب فقال لها ابن عمر: أخبرينا ما رأيته من رسول الله ﷺ ؟ فكان فيما قالت: أن الرسول ﷺ قام يصلي فبكى، حتى بلَّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلَّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، قالت: فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

فقال: ((ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليَّ في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾، ثم قال: ((ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها))[١]

وهكذا نجد أن التفكر في خلق الله عبادة جليلة، لا بد لمن أراد السير في طريق التزكية أن يحرص عليها، ليفتح بصيرته على المشاهد العظيمة، ويتوجه إلى ربه بقلب خاشع يعمره الإيمان، وقد أشار إلى ذلك الصحابي الجليل أبو الدرداء ﷺ فقال: ((تفكر ساعة خير من قيام ليلة))[٢]

وكم من أناس تيقظت فطرهم وأعلنوا إسلامهم وأصبحوا دعاة لهذا الدين، لأنهم أطلقوا عقولهم للتفكر في بدائع المخلوقات، من خلال اختصاصاتهم العلمية في الطِّب والفلك وعلم الأحياء ومختلف العلوم والمعارف[٣]

والمشاهد المتنوعة في الكون والأحياء على اختلاف أنواعها دروس

١- رواه ابن حبان في صحيحه (موارد الضمآن إلى زوائد ابن حبان)- رقم (٥٢٣)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة -رقم (٦٨).

٢- رواه الإمام أحمد في كتابه الزهد ص٢٠٢.

٣- يرجع إلى كتاب: الله يتجلى في عصر العلم، وكتاب: العلم يدعوا إلى الإيمان، تأليف كريسي موريسون.

ناطقة لمن تأملها بعين البصيرة ليستلهم منها العبر وتكون عونا له على علاج النفس من آفاقها وترقيتها في مدارج التقوى والتحلي بالأخلاق الفاضلة.

فلو نظر مثلا إلى الأشجار لأتخذ منها دروسا لا تعد في ثباتها ورسوخ جذورها ومقاومتها للرياح. وهي عندما ترمى بالأحجار تلقي بالثمار. وتمد أغصانها لتمنح الظلال. فليكن المؤمن كذلك في قوة إيمانه وحسن خلقه وإحسانه إلى الآخرين.

والشجرة عندما كانت فسيلة صغيرة لا تقوى على مقاومة الرياح فإنها تحاط بسياج أو تربط بعصا ثابتة تسندها وتساعدها على استقامتها. وفي هذا المشهد درس بليغ لضرورة الصحبة الصالحة التي يرتبط بها المسلم لتساعده على الاستقامة. وتكون سياجا واقيا له من تيارات الضلال.

وفي مشهد النار وألسنة اللهب والشرر المتطاير عبر لا تخفى. فإذا كان الإنسان لا يصبر لحظة على حرها في الدنيا فكيف يصبر عليها في الآخرة !!.

وهكذا يتخذ العبد الموفق من كل مشهد عبرة. روى الحافظ ابن أبي الدنيا عن أبي سليمان الداراني أنه قال: (إني لأخرج من منـــزلي فما يقع بصري على شيء - [أي: مما أحل الله النظر إليه] - إلا رأيت لله علي فيه نعمة ولي فيه عبرة)[1]

كما ندرك أهمية الدعوة إلى التفكر والحث عليه. وضرورة اغتنام الدعاة هذا الجانب في دعوقم وبخاصة ممن آتاهم الله العلم في مجالات

(١) [illegible] (٤٤١)

الطب والفلك وغيرها من مجالات العلوم الحديثة[1].

ثانيا: التفكير في الموت وأهوال القيامة وتذكرها:

إن مما يضر النفس ويدفعها إلى الصراعات المشؤومة والشهوات المذمومة طول أملها، ونسيانها للموت، ولذلك كان مما تعالج به النفس تذكر الموت وأهوال يوم القيامة. وقصر الأمل الذي هو أثر عن تذكر الموت وأهوال القيامة، وبقدر ما يقصر الأمل ويتذكر الإنسان الموت وأهوال القيامة يكون عكوفه على القيام بحقوق الله أكثر، ويكون الإخلاص في عمله أتم.

ومن هنا وغيره يأخذ تذكر الموت وأهوال القيامة أهميتها كوسيلة من وسائل تزكية النفس.

وقد تظافرت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على وجوب ذكر الموت والاستعداد له والعمل لما بعده، والتحذير من الغفلة عن ذلك المصير المحتوم والأجل المكتوب.

قال تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذين آمَنوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ ولا أَوْلادُكُمْ عن ذِكْرِ اللّه ومن يفْعلْ ذلك فأُولَئك هُمُ الْخاسرُون. وأَنفِقُوا من مَّا رزقْناكُم مِّن قبْلِ أن يأْتِي أحدكُمُ الْموْتُ فيقُول رب لوْلا أخرْتني إلى أجلٍ قريب فأَصَّدَّقَ وأكُن من الصَّالحين. ولن يُؤخِّرَ اللَّهُ نفْسا إذا جاء أجلُها واللّهُ خبيرٌ بما تعْملُون﴾ (المنافقون: ٩-١١).

ولذلك لا بد للمسلم من أن يكثر من ذكر الموت وما بعده من عوالم الآخرة. وأن يستعرض بذاكرته مشاهد القيامة وأهوالها ليكون ذلك

---

(١) انظر: منهج الإسلام في [illegible] (٤٥٧).

واعظا لنفسه وحاجزا لها عن التعلق بالدنيا والشغف بها. وكلما ازداد إقبال الدنيا على العبد وأصبح ذا مال وجاه وسلطان ازدادت حاجته إلى الإكثار من ذكر الموت لئلا تفتنه الدنيا عن الآخرة.

ويكون شعاره في الدنيا ذلك الشعار الذي رفعه النبي ﷺ حين قال: ((كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)) فيعيش المسلم في هذه الحياة كالغريب الذي لا يأوى إلى شئ ولكنه يظل دائماً في شوق إلى دياره يترقب لقاء الله، كما يترقب الغريب لقاء الأهل والولد. ويترقب رحمته ومغفرته. ويكون الموت منه على مرأى ومسمع.. ينتظره في كل لحظة ويستعد له في كل حال.

ينظر إلى القبور فيرى سكونها وهدوءها ليشعر أن تحت التراب أناسا مثله قد أفضوا إلى ما قدموا فمنهم الذين اسودت وجوههم وكأني بهم يرون الملائكة التي تعذبهم ولا تأبه بصراخهم وعويلهم. ويحسون بضمة القبر وقد أطبقت على أضلاعهم.

ثم ينظر إلى التراب نظرة أخرى فينظر إلى أهل النعيم والجنات، مبيضة وجوههم، هادئة أرواحهم مطمئنة نفوسهم، ينظرون إلى رحمة الله تعالى ويحمدونه على النعيم. فيأخذ من هذا الموقف زادا له في دربه وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: ((أكثروا من ذكر هادم اللذات))[٢]

ولا شك أن مما يذكّر بالموت ويهزّ أعماق النفس أن يشهد الإنسان مشاهده. بخاصة عندما يرى شخصا في سكرات الموت وهو يعاني

صحيح [illegible] (٤ [illegible]).

الترمذي [illegible] كتاب [illegible] الموت [illegible] حديث [illegible] ٢٣) وقال حديث

حسن غريب، وحسنه الألباني في ([illegible] ٣)، وصححه [illegible] صحيح الجامع

[illegible]

النـــزع الأخير. ثم يراه بعد أن يلفظ أنفاسه. وتبرد أعضاؤه وتشتد أحزان أهله لفراقه. ثم يراه وهو يُغسَّلُ ويُكفَّنُ ويُصلَّى عليه. ويوضع في تلك الحفرة الضيقة المظلمة. ثم تغطى ويهال التراب عليها ويتفرق عنه الأهل والأصحاب.

ان هذه المشاهد تحفر في النفس آثارا عميقة وتؤثر فيها أكثر من عشرات الخطب والمواعظ والدروس. وكثيرا ما تحدث انقلابا في سلوك المرء وتغييرا لأفكاره واتجاهاته. وهي بلا شك سبب رئيسي في توبة كثير من أهل المعاصي واستقامتهم على طريق الايمان.

ولا شك أن مما يدعو لتذكر الموت وقصر الأمل تدبر آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية التي تتحدث عن الموت وأحوال الناس في الآخرة، والوقوف عند مشاهد القيامة وأهوالها. ابتداء من سكرات الموت ثم عالم القبر إلى النفخ في الصور ومشاهد يوم الحشر ومواقف الميزان والحساب وتطاير الصحف والمرور على الصراط، حتى يصل الإنسان إلى مقعده في الجنة أو النار. وما يُصبُّ على أهل النار من عذاب شديد. وأهوال عظيمة. كل ذلك يدعو إلى المسارعة إلى تقوى الله سبحانه قبل حلول الأجل. والاكثار من ذكر الموت والاستعداد للقائه(١)

[illegible]

المبحث الخامس

معرفة مداخل الشيطان على النفس وقطع الطرق عليه:

ان للشيطان تأثيرا كبيرا على النفوس- إلا من عصمه الله تعالى- والشيطان يأتي النفوس من خلال غرائزها وشهواتها الحسية والمعنوية وهو خبير بنقاط الضعف لدى الإنسان. لذلك فإن من وسائل تحصين النفس، وبالتالي من وسائل تزكية النفس، معرفة مداخل الشيطان على النفس.

ومداخل الشيطان كثيرة ومتعددة وبها يطبق خطته التي رسمها من قبل. وهو يستخدم كل مدخل حسب نوعية الإنسان ومستواه الإيماني. ومن هذه المداخل:

١- الأمر بالسوء:

إن أعمال الشيطان كلها ومداخله تندرج تحت الأمر بالسوء لأنه لا يعرف إلا الأمر بالسوء فأخبر عنه تعالى. ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(البقرة ١٦٩). لأن الأمر بالسوء هو الضمان الوحيد لتحقيق غاياته. وقد يخدع البعض ويلبس بعض أوامره ثوب الحق ولكنه أبدا لا يريد الا السوء، فلقد أخذ إذنا من الله وعهداً على نفسه بأن يؤذي بني آدم أشد الإيذاء ويحاربهم بكل وسيلة ويقتحم دورهم في كل مكان ويستولي ويستزل من بني آدم حظا معلوماً فقال: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾(النساء:١١٨-١١٩).

٢- الاستحواذ:

يقول تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(المجادلة: ١٩). أي أنساه خالقه الذي صوره وأحسن تصويره. ويسعى عدو الله سعياً حثيثا لتبخير كل ما علق به من ذرات من ذكر الله حتى يحيله إلى طينة يابسة لا حياة فيها، لذلك قال رسول الله ﷺ: ((مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحي والميت))[١]

ويستخدم عدو الله وسائل كثيرة لتحقيق هذا المدخل منها ما ذكر في القرآن الكريم كالخمر والميسر. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾(المائدة: ٩١).

٣- التخويف:

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(آل عمران: ١٧٥).

يتقوى الباطل يوماً بعد يوم وتكثر عدته وتزداد أعداده ويبدو مرعباً ذلك الازدياد وهذه التطورات بتصنيع الأسلحة المدمرة والأجهزة الإعلامية الضخمة التي يمتلكها الباطل.

ولربما تسرب شيء من الخوف إلى نفس المؤمن من ذلك الباطل الضخم ولكن الله يرد تلك المخاوف. ويطمئنهم بهذه الآية.

فالمؤمن متيقن أن ذلك التضخم الذي حدث للباطل إنما هو أورام

---

١ [illegible] باب فضل [illegible] (ح ٢٣٥٣) [illegible] (٦٠٤٤).

ذات غشاء رقيق مليئة بالميكروبات الخبيثة جاءت غازية لذلك الجسم السليم. فكلما زاد حجم هذه الأورام كلما دنا أجل انفقاعها ويخرج ذلك القيح النتن بعد الانفقاع. ويعود الجسم إلى حالته السليمة.

فلا يخاف إلا من الله، ولا تروعه أعمال الباطل الكثيرة ما دام متمسكا بالحق في عصبة الحق.

ومن ميادين الخوف التي يدخل منها الشيطان إلى النفس الإنسانية خوف الفقر، يقول تعالى: ﴿الشَّيْطانُ يعدُكُمُ الْفقْر ويأْمُرُكم بالْفحْشاء واللّهُ يعدُكُم مّغْفرةً مِّنْهُ وفضْلاً واللّهُ واسعٌ عليمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٨). فيلقي في النفس الخوف من الفقر وذلك عندما يهم المسلم بالإنفاق في سبيل الله. أو إذا طلب منه ذلك يوهمه بأن ذلك سينقص من ماله وأنه محتاج لذلك المال ويعرض له الأدلة من القرآن: ﴿لا يُكلِّفُ اللّهُ نفْسا إلاّ وُسْعها﴾ (البقرة: ٢٨٦)، إلى آخر هذه الهمزات التي تجعله يعدل عن الإنفاق في سبيل الله.

٤ – الأماني الكاذبة:

وهو يعد الناس بالوعود الكاذبة ويمنهم بالأماني المعسولة، كي يوقعهم في وهدة الضلال: ﴿يعدُهُمْ ويُمنيهمْ وما يعدُهُمُ الشّيْطانُ إلاّ غُرُورا﴾ (النساء: ١٢٠).

فهو يعد الكفرة في الدنيا بالغلبة والنصر والتمكين والعزة، والثروة والمال والنجاة من عاقبة أعمالهم في الآخرة. ويزرع في قلوبهم أن اعملوا ما شئتم من المعاصي فإن لكم ربا غفورا وينسيهم أنه شديد العقاب.

كما أنه يمني بعض الدعاة بملاذ الدنيا من الأولاد والتجارة وطلب الرياسة فيتركون الدعوة ويستسلمون هذه الأماني التي تجذبهم إلى

الأرض فيصدهم عن العمل الجاد المثمر فينسون من في السماء.

٥ - الإيحاء بالمجادلة:

إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوا أصحاب الحق في الحق الذي معهم وليشككوا فيه لكي يتزعزع إيمان المؤمن بعقيدته: «ولا تأْكُلوا ممّا لم يُذْكر اسْمُ اللّه عليْه وإنّهُ لفسْقٌ وإنّ الشّياطين ليُوحُون إلى أوْليآئهمْ ليُجادلُوكُمْ وإنْ أطعْتمُوهُمْ إنّكُم لمُشْركُون» (الأنعام: ١٢١).

والجدل يبغضه الإسلام إلا في حالات الدعوة وهو مقيد بشرط الالتزام بالأدب الإسلامي وعدم الخروج منه حيث قال الله تعالى: «وجادلْهُم بالّتي هي أحْسنُ إنّ ربّكَ هُو أعْلمُ بمن ضلّ عن سبيله وهُو أعْلمُ بالْمُهْتدين» (النحل: ١٢٥)، أما ما عدا ذلك فهو مبغوض في الإسلام لأنه غالباً ما تكون عاقبته سيئة.

٦- غرس اليأس

قال علي بن طلحة عن ابن عباس: (نزل النبي ﷺ حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة وعصة وأصاب المسلمين ضعف شديد وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنبين؟ فأمطر الله عليهم مطرا شديدا فشرب المسلمون وتطهروا وأذهب الله عنهم رجز الشيطان)

يقول لهم: (وأنتم تصلون مجنبين) ومتى كان العدو ناصحاً ؟ إنما ذلك هو التخطيط الشيطاني لغرس ذلك اليأس في قلوب عصبة الحق. ومن الطبيعي أن يدخل عليهم من ذلك المدخل الإيماني لكي يسهل عليه غرس

اليأس وإلا اكتشفوه: ﴿إذْ يُغشّيكُم النُّعاس امنة منْهُ وينزّلُ عليْكُم من السّماء ماءً لّيُطهّركُم به ويُذْهب عنكُمْ رجْز الشّيْطان وليربط على قُلوبكُمْ ويُثبّت به الأقْدام﴾(الأنفال ١١). وقد يلقي في نفــوس بعض الدعاة -كيف تنتصرون والجاهلية تملك ما تملك وأصحاب الحق قليلون وقد مرت سنون ولم يحدث تغيير وكلما خرجتم من السجون عدتم إليها- إلى متى هذه الغربة.

٧- تفكيك الأسرة:

وقد علم يوسف (عليه السلام) في نهاية المطاف هذا المدخل عندما ((رفع أبويه على العرش وخروا له سجدا)) قال مخاطبا أباه: ﴿ورفع أبويْه على الْعرْش وخرُّواْ لهُ سجّدا وقال يا أبت هذا تأْويلُ رُؤْياي من قبْلُ قدْ جعلها ربي حقًّا وقدْ أحْسن بي إذْ أخْرجني من السجْن وجاء بكُم من الْبدْو من بعْد أن نّزغ الشّيْطانُ بيْني وبيْن إخْوتي إنّ ربي لطيفٌ لّما يشاء إنّهُ هُو الْعليمُ الْحكيمْ﴾(يوسف ١٠٠)

هذا هو شأنه دائما تفكيك كل شيء يتجمع لأن الجمع قوة وبالانفراد ضعف فهو يجب أن يقود الناس جميعاً إلى الهاوية -فأكثر ما يهمه هو تفكيك الأسرة - هذا هو الذي يهدده. ويهدد باطله وخاصة إذا صلح- قال ﷺ: ((إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته. قال: فيدنيه منه ويقول نعم أنت))[2] وإذا تحطمت

[1] يوسف: ١٠٠

[2] رواه مسلم [illegible] الشيطان وبعثه سراياه [illegible] مع [illegible]
(٤/ [illegible]) رقم(٢٨١٣).

هذه الخلايا الطيبة تحطم المجتمع وتفككك.

٨- الغضب:

دخل موسى عليه السلام المدينة فوجد رجلين يقتتلان أحدهما من بني إسرائيل والآخر قبطي فاستغاثه الذي هو من قومه وهو الإسرائيلي على عدوه، وهنا تدخل عدو الله ليلقي الغضب في نفس موسى. فما أن دعاه صاحبه واستنصره حتى هوى بقبضة يديه على القبطي فصرعه - ولم تكن فترة تفكير أو تأني من موسى- إنما ضرب عدوهما بمجرد استغاثة صاحبه به ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ (القصص: ١٥

وبعد أن رأى موسى القبطي قتيلا أدرك أن ذلك من عمل الشيطان فقال: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ (القصص: ١٥).

والغضب نوعان: غضب لله وغضب لغير الله. والنوع الثاني من الغضب هو الذي يسببه عدو الله وهو مدخل من مداخله، اذ به تحدث الجرائم وتتفكك الأسر ويضعف الإيمان، وتضعف رابطة الاخوة في الله، فهو شر تنبع منه شرور كثيرة. لذلك لم يكن غريبا عندما قال رجل للرسول ﷺ: ((أوصني. قال: لا تغضب. فردد مرارا، قال: لا تغضب))

٩- النجوى: النجوى أنواع:

النوع الأول: يكون بين اثنين دون ثالث. وفي ذلك يقول الرسول ﷺ ((إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك

٩- (٢٢٦/

يحزنه))[1]

النوع الثاني: يكون بين جزء من الجماعة دون الجماعة أو دون القيادة. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذين آمنُوا إذا تناجيْتُمْ فلا تتناجوْا بالْإثْم والْعُدْوان ومعْصيت الرّسُول وتناجوْا بالْبر والتّقْوى واتّقُوا اللّهَ الّذي إليْه تُحْشرُون﴾(المجادلة: ٩).

والهدف الرئيس من كلا النوعين هو إدخال الحزن في قلوب المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إنّما النّجْوى من الشّيْطان ليحْزُن الّذين آمنُوا وليْس بضارّهمْ شيْئا إلّا بإذْن اللّه وعلى اللّه فلْيتوكّل الْمُؤْمنُون﴾(المجادلة: ١٠).

١٠- تزيين الباطل:

هذا هو السبيل الذي كان الشيطان ولا يزال يسلكه لإضلال العباد، فهو يظهر الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل، ولا يزال بالإنسان يزين له الباطل، ويكره الحق إليه، حتى يندفع نحو فعل المنكرات ويعرض عن الحق، كما قال اللعين لرب العزة: ﴿قال رب بمآ أغْويْتني لأُزيننّ لهُمْ في الأرْض ولأُغْوينّهم أجْمعين. إلاّ عبادك منْهمْ الْمُخْلصين﴾ (الحجر ٣٩-٤٠).

١١- التسويف والتكاسل، وتهاون المسلمين في تحقيق ما أمروا به:

وله في ذلك أساليب وطرق ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم (القافية: مؤخرة الرأس) إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة

(١) رواه البخاري [illegible] باب [illegible] من ثلاثة فلا [illegible] (٥٩٣٢)، ورواه مسلم [illegible] الاثنين دون الثالث بغير [illegible] (٢١).

مكانها. عليك ليل طويل فارقد. فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة. فإن توضأ انحلت عقدة. فإن صلى انحلت عقده كلها. فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان)).

وإذا التزم المسلم بإسلامه فإن الشيطان لا يجد سبيلا لإضلاله والعبث به. فإذا تهاون وتكاسل في بعض الأمور فإن الشيطان يجد فرصته. قال تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذين آمنوا ادْخُلوا في السِّلْمِ كآفَّة ولا تتبعوا خُطُوات الشَّيْطان إِنَّهُ لكُمْ عدُوٌّ مُّبينٌ﴾ (البقرة: ٢٠٨). فالدخول في الإسلام في كل الأمور هو الذي يخلص من الشيطان.

١٢- إظهار النصح للإنسان:

يدعو الشيطان المرء إلى المعصية يزعم أنه ينصح له. ويريد خيره. وقد أقسم لأبينا آدم عليه السلام على أنه له ناصح: ﴿وقاسمهُما إنّي لكُما لمن النَّاصحين﴾ (الأعراف: ٢١).

١٣- تنسية العبد:

ومن ذلك ما فعله بآدم فما زال يوسوس له حتى أنساه ما أمره به ربه: ﴿ولقَدْ عهِدْنا إِلى آدم من قبْلُ فنسي ولمْ نجدْ لهُ عزْمًا﴾ (طه: ١١٥). وقال صاحب موسى لموسى: ﴿قال أرأيْت إذْ أوَيْنا إلى الصَّخْرة فإنّي نسيتُ الْحُوت وما أنسانيهُ إلَّا الشَّيْطانُ أنْ أذْكُرهُ واتّخذ سبيلهُ في الْبحْر عجبًا﴾ (الكهف: ٦٣).

١٤- هوى النفس:

ومن هاهنا دخل الشيطان على آدم وحواء كما قال تعالى: ﴿فوسْوس لهُما الشَّيْطانُ ليُبْدي لهُما ما وُوري عنْهُما من سوْءاتهما وقال ما نهاكُما ربُّكُما عنْ هذه الشَّجرة إلاَّ أن تكُونا ملكيْن أوْ تكُونا

من الخالدين﴾ (الأعراف: ٢٠). فمما تهواه النفس حب الخلود والبقاء.

١٥- إلقاء الشبهات:

ومن أساليبه في إضلال العباد زعزعة العقيدة بما يلقيه من شكوك وشبهات. وقد حذرنا الرسول ﷺ من بعض هذه الشبهات التي يلقيها ففي حديث البخاري ومسلم: ((يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته)).

١٦- النساء وحب الدنيا:

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه ما ترك فتنة أشد على الرجال من النساء. ونهى الرسول عن الخلوة بالمرأة وأخبر أنه ما خلى رجل بامرأة إلا والشيطان ثالثهما. أما حب الدنيا فهو رأس كل خطيئة. وما سفكت الدماء وهتكت الأعراض. وغصبت الأموال. وقطعت الأرحام...إلا لأجل حيازة الدنيا. والصراع على حطامها الفاني. وحرصا على متعها الزائلة.

كيفية وصول الشيطان إلى نفس الإنسان:

هناك طرق كثيرة يسلكها الشيطان للوصول إلى مراده من الإنسان. ومن أعظمها -الوسوسة- والتي تندرج تحتها الطرق والمداخل والوسائل الأخرى..

الوسوسة:

يستطيع الشيطان أن يصل إلى فكر الإنسان وقلبه بطريقة لا ندركها ولا نعرفها. يساعده على ذلك طبيعته التي خلق عليها وهذا الذي

نسميه بالوسوسة. وقد أخبرنا الله بذلك إذ سماه: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ. الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾(الناس: ٤-٥)، قال ابن كثير في تفسيره (الوسواس الخناس) الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس فإذا ذكر الله خنس.

وقد ثبت في صحيح البخاري أن الرسولﷺ قال: ((إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)).

وهذه الوسوسة أضل آدم وأغراه بالأكل من الشجرة: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾(طه: ١٢٠).

ويتدرج إبليس في وساوسه مع ابن آدم في ست مراتب ذكرها الإمام ابن القيم وهي:

المرتبة الأولى: شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله. فإن يأس منه من ذلك، نقله إلى المرتبة الثانية.

المرتبة الثانية: شر البدعة. وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي لأن ضررها في نفس الدين وهو ضرر متعد، وهي ذنب لا يتاب منه، وهي مخالفة لدعوة الرسل ودعاء إلى خلاف ما جاءوا به، وهي باب الكفر والشرك... فإذا يأس منه من ذلك نقله إلى المرتبة الثالثة.

المرتبة الثالثة: شر الكبائر على اختلاف أنواعها. فإن يأس منه نقله إلى ما بعدها.

المرتبة الرابعة: شر الصغائر. فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الخامسة.

المرتبة الخامسة: شر الاشتغال بالمباحات. فإن أعجزه العبد من هذه

المرتبة وكان حافظا لوقته شحيحا به يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها بالنعيم والعذاب نقله إلى:

المرتبة السادسة: شر الاشتغال بالعمل المفضول عما هو أفضل منه.

فإذا أعجزه العبد في هذه المراتب الست واعيي عليه: سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه [1]

[illegible]

المبحث السادس

صحبة الصالحين:

صحبة الصالحين ومجالستهم والتأمل في أخبارهم وسيرهم تكسب المرء الصلاح والتقوى. وترقى بالعبد إلى مدارج الكمال. وتعدُّ سياجا واقيا من آفات النفس ومكائد الشيطان.

أهمية الصحبة الصالحة.

ولصحبة الصالحين أهمية عظمى في حياة المسلم. نشير إليها فيما يأتي

١- الفرد المسلم لا يسير في طريق آمن بل يسير في طريق محفوف بالمكاره والمزالق والعقبات والفتن. وشياطين الإنس والجن له بالمرصاد. فهو أحوج في مثل هذا الطريق إلى من يأخذ بيده ويرشده ويبصره ويذكره إذا نسي ويعينه إذا ذكر. وصدق الله العظيم إذ يقول. ﴿والعصر إنّ الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنو وعملوا الصّالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ (سورة العصر).

٢- تأتي على الفرد المسلم فترات فتور أو غفلة أو نسيان أو استجابة لوسوسة الشيطان. فلو كان وحده لتمادى واستمرأ تلك الأحوال ولتعرض إلى الضياع والهلاك. ((إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية)). أما إذا كانت له صحبة صالحة فلن يتركوه إلى نفسه

وشيطانه. إذا افتقدوه في مجالات العمل الصالح سيبحثون عنه ليدعُوه ويذكروه ويعاونوه على نفسه وشيطانه.

٣- إن الصاحب الصالح بمجرد رؤيتك له تذكرك بالله وبطاعة الله. أما رفيق السوء فرؤيته تذكر بالمعاصي والآثام وفعل المنكرات. فشتان بين الفريقين، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: ((مثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شئ أصابك من ريحه، ومثل جليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك شرره أصابك من دخانه))[1]، ورحم الله من قال: (جالسوا من تذكركم بالله رؤيته ويزيد في علمكم كلامه ويرغبكم في الآخرة عمله).

٤- المؤمن مرآة أخيه. ما من فرد إلا وفيه عيوب وقصور. وكثيراً ما يغفل عنها ولا ينتبه لها، فهو أحوج ما يكون إلى من يبصره ويعينه على إصلاحها والتخلص منها ولا يقدر على ذلك إلا أخٌ محبٌ مخلصٌ دائمُ الصلة رقيقُ المعاملة حكيمٌ في نصحه وتبصيره.

٥- الصحبة الصالحة تضاعف من قدرات الفرد وطاقاته. فحينما يفكر في أمر فكأنما يفكر بعقول إخوانه جميعاً لأنه يسترشد بآرائهم، وحينما يقوم بعمل فهم جميعاً يعينونه بطاقاتهم ويفيدونه بخبراتهم.

٦- الصحبة الصالحة تضاعف سعادة الفرد بمشاركته في مسراته وتخفف عنه متاعبه وآلامه إذا أصابه ضرر أو مصيبة، يعينونه بأموالهم ويذكرونه بالله والصبر على البلاء وعدم الاستسلام للحزن أو الانطواء.

٧- الله سبحانه وتعالى يدعونا إلى التعاون على البر والتقوى فيقول:

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة: ٢).

وهو توجيه إلى الجميع وليس إلى أفراد متفرقين. فالصحبة الصالحة واجبة ولازمة لتحقيق ذلك. ما أجمل الأخوة في الحي الواحد أو القرية الواحدة حينما يتعاونون في مجالات الخير والطاعات، خاصة تلك التي غفل عنها وقصر فيها كثير من المسلمين كقيام الليل وصلاة الجماعة في المساجد وخاصة صلاة الفجر والعشاء وحضور موائد القرآن والعلم والذكر وقوافل الدعوة إلى الله ومعاونة الفقراء وذوي الحاجة.

٨- ما أعظم فائدة الصحبة الصالحة وقت الشدائد والمحن حينما يتعرض الفرد المسلم إلى ضغوط شديدة تصرفه عن العمل لدعوة الله أو عن الطريق الصحيح المستقيم مع أمر الله. هنا تظهر أهمية الصحبة الصالحة التي تحافظ عليه وتعمل على حمايته من التفلت أو القعود أو الانحراف أو التأثر بوعد أو وعيد أعداء الله ومحاولاتهم الشيطانية لتخلي العاملين للإسلام عن موقعهم في الصف المسلم.

٩- ما أعظم الزاد الذي يحظى به الفرد في الصحبة الصالحة حينما يدعو له إخوانه بظهر الغيب بدعوات صالحة وهي دعوات مستجابة كما أخبرنا الحبيب ﷺ.

ولأهمية الصحبة الصالحة وما يترتب عليها من خير للإسلام والمسلمين نجد الإسلام وشريعة الإسلام تحافظ عليها وترعاها من كل ما ينال من وحدتها وتآلفها، وتحرم ما من شأنه أن ينال منها ويوقع الشحناء والبغضاء بين المسلمين كالغش والخيانة وبيع الغرر والربا والخمر والميسر وغير ذلك كالتحاسد والتباغض والسخرية وسوء الظن والتجسس

والتقاطع والتدابر. وهذا أنس ﷺ يروي عن رسول الله ﷺ قوله: ((لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً. ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث))[١].

فعليك يا أخي بالصحبة الصالحة فهي عون لك في الدنيا والآخرة.

فضل صحبة الصالحين:

لصحبة الصالحين فضل عظيم في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ،ومن هذا الفضل:

١- الجليس الصالح يهديك ويرشدك ويدلك على الخير، وترى منه المحامد والمحاسن والمكارم، وهو كله منافع وثمرات:

عن أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكِير، فحامل المسك إما أن يحذيك [يعطيك]، وإما أن تبتاع منه [تشتريه منه]، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة))[٢]

٢- الصديق الصالح طريق لصلاح الإنسان واهتدائه والعكس صحيح:

يقول الشاعر:

واحــذر مؤاخــاة الدنِيء لأنــه
يعدي كما يُعدَى الصحيحُ الأجربَ

١- رواه البخاري- باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر- (٥/٢٢٥٣) رقم (٥١٧٨)، ورواه مسلم- باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر- (٤/١٩٨٣)- رقم (٢٥٥٩).

٢- رواه البخاري-باب المسك- (٥/٢١٠٤) رقم (٥٢١٣)، ومسلم- باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء- (٤/٢٠٢٦) رقم (٢٦٢٨).

واختر صديقك واصطفيه تفاخراً

القريـــن إلى المقـــارن ينســـبُ

٣- معاشرة الأخيار تطبيق لأوامر الله، والابتعاد عن مخالطة الأشرار ابتعاد عما نهى الله عنه:

فهناك آيات كثيرة ترغب في معاشرة الأخيار وترهب من مخالطة الأشرار، ومنها:

أ- قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا[إسرافاً]﴾(الكهف: ٢٨).

ب- وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾(المائدة: ٥٦).

ج- وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾(هود: ١١٣).

وكذلك يوجه الرسول ﷺ المؤمنين إلى مصاحبة المؤمنين والمتقين، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: ((لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي))[1]

٤- صحبة الأخيار سعادة دائمة في الدنيا والآخرة:

يقـــول الله سبحانه وتعالى: ﴿الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا

١- رواه أبو داود في سننه (٢٥٩/٤) باب من يؤمر أن يجالس- رقم (٤٨٣٢)، والترمذي في سننه- باب ما جاء في صحب المؤمن (٦٠٠/٤)-رقم (٢٣٩٥)، وابن حبان في صحيحه- باب الصحبة والمجالسة- (٢ / ٣١٤)- رقم (٥٥٤).

الْمُتَّقِينَ﴾(الزخرف: ٦٧). قال البيضاوي: (فإن خلتهم لما كانت في الله تبقى نافعة أبد الآباد).

ويقول تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ. ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾(الشورى: ٢٢-٢٣).

٥- محبة الصالحين طريق للفوز بمحبة الله سبحانه وتعالى للإنسان:

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: ((أن رجلا زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً، أتى عليه قال: أين تريد ؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربها عليه؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله تعالى، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه))[١].

(يقال: أرصده لكذا: إذا وكله بحفظه... والمدرجة: الطريق... تربها: تقوم بها، وتسعى في صلاحهـــا).

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من عاد مريضاً أو زار أخاً له في الله، ناداه مناد: بأن طبت، وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منـــزلاً))[٢]

١- رواه مسلم: باب في فضل الحب في الله (٤ / ١٩٨٨) رقم (٢٥٦٧).

٢- رواه الترمذي في سننه- باب ما جاء في زيارة الإخوان- (٣٦٥/٤)- رقم (٢٠٠٨)، وقال: حديث حسن، وفي بعض النسخ غريب، ورواه ابن ماجة في سننه- باب ما جاء في ثواب من عاد مريضاً (٤٦٤/١)- رقم (١٤٣).

٦- صحبة الصالحين سبيل الفوز بحسناتهم، والحشر مع زمرهم يوم القيامة، واللحاق بركبهم في الجنة:

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((الرجل على دين خليله [صديقه]، فلينظر أحدكم من يخالل))[١].

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال: ((المرء مع من أحب))[٢]

وفي رواية قال: قيل للنبي ﷺ: ((الرجل يحب القوم [من أهل الصلاح] ولما يلحق بهم ؟ قال: ((المرء مع من أحب))، وعن ابن مسعود ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: ((المرء مع من أحب))[٣].

ويقول الإمام عبدالقادر الكيلاني: (إذا خالطْتَ أهل الدين وأحبَبْتَهُم، استغنَتْ يداك، وقلبك يهرب من النفاق وأهله)[٤]

١- رواه أبو داود في سننه باب من يؤمر أن يجالس (٢٥٩/٤)- رقم (٤٨٣) بإسناد صحيح، والإمام أحمد في مسنده (٣٠٣/٢)- رقم (٨٠١٥)، والترمذي في سننه- (٥٨٩/٤)- رقم (٢٣٧٨)، وقال الترمذي حديث حسن.

٢- رواه الإمام أحمد في مسنده (٣٩٥/٤) رقم (١٩٥٤٤).

٣- رواه مسلم- باب المرء مع من أحب- (٢٠٣٤/٤) رقم (٢٦٤٠).

٤- الفتح الرباني (٣٦)

من تختار لك صاحباً:

بما أن صحبة الصالحين بهذا الفضل، وصحبة قرناء السوء بهذا الشؤم، وبما أن من طبيعة الإنسان أنه لا يستغني عن الأصدقاء فهو يحب دائماً أن يكون له أصحاب يلتقي بهم ويأنس بمجالستهم، فلابد من الحسم في اختيار الأصحاب، لذا أقول لا بد من توفير شروط فيمن نصاحبه ونصادقه، وأهمها:

١ – الإيمان والالتزام:

وذلك لورود نص الحديث النبوي الشريف بذلك، حيث يقول رسول اللهﷺ:((لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي))[١]

ولأن دين الرجل هو دين صديقه، فهل ترضى أن تكون على دينٍ غير الإسلام ؟.. وهذا مستنبط من قولهﷺ: ((الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل))[٢]

ولما كان حشر الإنسان مع من يحب يوم القيام فلابد من مراجعة من نحبهم ومن نبغضهم؟ فهذا رسول اللهﷺ يقول: ((المرء مع من أحب)). فإن أحب الله ورسوله والمؤمنين فهو معهم، وإن أحب غيرهم فهو مع غيرهم.

ولهذا يدعونا الله أن نصبر مع المؤمنين ونتخذ منهم الأصحاب رغبة في الحشر معهم وإن كان طريقهم شاقاً: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ

١- سبق تخريجه.

٢- سبق تخريجه.

أَمْرُهُ فُرُطًا﴾(الكهف: ٢٨).

وهذا ما دفع ملكة مصر ((آسيا)) زوجة فرعون إلى التضرع إلى الله بالدعاء بأن ينجيها من فرعون وعمله وينجيها من القوم الظالمين مخافة أن تحشر معهم: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(التحريم: ١١).

٢- أن يكون حريصاً على هدايتك وصلاحك:

فقد نقل الله لنا مشاهد النادمين يوم القيامة وهم يعظون على أصابعهم من شدة الندم من اتخاذ المضل صديقاً كما في سورة الفرقان، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا. يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾(الفرقان:٢٧-٢٩).

٣- أن يحب لك الخير كما يحبه لنفسه:

جاء في البداية والنهاية لابن كثير في ترجمة الخليفة الراشد الزاهد عمر بن عبد العزيزﷺ ما نصه: عن سلام بن سليم قال: لما ولي عمر بن عبد العزيز صعد المنبر، وكان أول خطبة، حمد الله وأثنى عليه ثم قال: [أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فليفارقنا: يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بجهده، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدي إليه، ولا يغتابن عندنا أحداً، ولا يعرضن فيما لا يعنيه.. فأنقشع عنه الشعراء والخطباء وثبت معه الفقهاء والزهاد، وقالوا: ما

يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعله قوله)[1]

والله سبحانه وتعالى يجمل هذا الخير في كلمة التقـــوى، كما في قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾(الزخرف: ٦٧).

٤ – أن يكون من أصحاب الأخلاق والخصال الحميدة: (أو الذي لا تخشى من مصاحبته ولا تندم على أفعاله ولا تستحي من تصرفاته مع الناس).

ذكر أبو بكر البزار عن ابن عباس قال: قيل يا رسول الله، أي جلسائنا خير؟ قال: ((من ذكركم بالله رؤيته، وزاد في علمكم منطقـــه، وذكركم بالآخرة عمله)). وقال مالك بن دينار: (إنك إن تنقل الأحجار مع الأبرار خير لك من أن تأكل الخبيص مع الفجار).

وأنشد:

وصَاحبْ خَيارَ الناس تَنْجُ مُسلماً   وصَاحبْ شِرَارَ الناسِ يوماً فَتَنْدَم

وإنما نشترط الأخلاق والخصال الحميدة لأسباب:

أ– لأن صاحبها مرضيُّ الفعال، مُؤْثرٌ للخير آمرٌ به، كارهٌ للشر ناهيٌ عنه؛ فإن مودة الشرير تكسب العداء وتفسد الأخلاق ولا خير في مودة تجلب عداوة وتورث مذمة وملامة فإن المتبوع تابع صاحبه[2].

ب– مخالطة الأشرار تؤدي إلى بغض الصالحين لأن صاحب الشر يشين أصحاب الخير الصالحين لديه فيكرههم ويفر منهم بدون أن

١– البداية والنهاية لابن كثير (٩ / ٢٠٦).

٢– أدب الدنيا والدين (١٤٦).

يستمع منهم أو يجالسهم.. لذا قال البلغاء: (صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار)[1].

ج- لأن صفاته تكسب: فهذا أخوك الصغير يخرج إلى خـــارج البيت فيسمع (الشتائم) وتراه يدخل البيت وهو يردد ما سمعه في الخارج.. وكذلك بعض الرجال يتعارفون على أصدقاء لهم يتأخرون في الرجوع إلى البيت إلى منتصف الليل فهؤلاء أيضاً يتأخرون مثلهم. ولذلك قيل: (ما شئ أسرع في فساد رجل وصلاحه من صاحبه)[2]، وقد قال الشاعر:

عن المرء لا تسأل واسأل عن قرينه

فكـــل قريـــن بالمقـــارن يقتدي

وكذلك يقول الشاعر:

مُجـــالســـةُ السَّفيـــه سَفاهُ رأيٍ

العَـــقْـــلِ مُجَالَـــسَـــةُ الحكيمِ

فإنَّـــكَ والقَرِينَ معـــاً سَـــــواءُ

كَمَا قَـــدَّ الأديـــمُ مِنَ الأَديمِ[3]

د- لأنك تُعْرَفُ في الناس بهم. يقول سهل الوراق:

تخيَّـــرْ قريناً لا يَعيبُ فإنَّـــه   يقاسُ لَعَمْري بالقرين قرينُـــه

وشـــرُّ خدينٍ قاطعٌ لخدينـــه   إذا حادَ يوماً عن هواه خدينُهُ

٥- أن لا يكون ممن يصر على أخطائه وزلاته:

١- المصدر السابق (١٤٦).

٢- بهجة المجالس وأنس المجالس (٢ / ٧٠٥).

٣- أدب الدنيا والدين (١٤٦).

لأن من يصر على أخطائه وزلاته لا يخاف الله ومن لا يخاف الله لا تُؤمّن غائلته ولا يوثق بصداقته. فقد يرتكب أخطائه أو زلاته في أحس المواضيع، أو في أماكن يجلب لك السوء، أو مع أشخاص تكون محل إهانة أو مخالفة، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف: ٢٨)، ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (النجم: ٢٩)، ثم وجهنا إلى صحبة من يتوب من ذنوبه ويرجع إلى الله كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(لقمان: ١٥).

وكذلك فإن صحبة مَن يصر على أخطائه مجلبة للعنة الله والنبيين؛ لأنه ينهاه وذاك لا ينتهي وهذا يصر على صحبته فتنطبق عليهم قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ. كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾(المائدة: ٧٨-٧٩).

٦- أن يكون حريصاً على آخرته أكثر من حرصه على دنياه:

لأن الحريص على الدنيا وحدها يجعلك تحرص على الدنيا وحدها (والإناء ينضح بما فيه).

- قال علي ﷺ: (أحيوا الطاعات بمجالسة مَن يُستحيا منه).

- وقال الإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله): (ما أوقعني في بلية إلا صحبة من لا أحتشمه).

٧- أن لايكون ممن يثير الشبهات حول دينك ومبدئك، ولا يتهجم على المسلمين ولا ينال من أعراضهم:

ينبغي أن لا نصاحب الذين يثيرون الشبهات حول ديننا كي لا

يؤثروا فينا ويبعدونا عن طريق الإسلام؛ إذ من طبيعة الشبهات أنها تؤثر وتثبط وتفتح أبواب الفتور إذا لم يكن الإنسان محصناً، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ. يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ. أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ. قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ. فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ. قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ. وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾(الصافات: ٥١-٥٧). ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام: ٦٨).

٨- أن يكون ممن تستفيد من صحبته:

يقول الله تعالى متحدثاً عن موسى عليه السلام: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا. قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾(الكهف: ٦٥-٦٦). ويقول الشاعر:

فصاحب تقيــاً عالماً تنتفع بــه ... فصحبة أهل الخير تُرْجى وتُطلب
وإيــاك والفساق لا تصحبنهم ... فقربهـــم يعدي وهــذا مجــرب
فإنا رأينـــا المرء يسرق طبعـــه ... من الألف ثم الشر للنـــاس أغلب
كما قيل طين لاصق أو مؤثـــر ... كذا دود مرج خضرة منه يكسب
وجانب ذوي الأوزار لا تقربنهم ... فقربهم يردي وللعرض يثلـــب[1]

وكان يقال: (أنصحُ الناس لكَ مَن خاف الله فيك)[2].

١- غذاء الألباب شرح منظومة الآداب (٢/٣٧٥).
٢- بهجة المجالس وأنس المجالس (٢/٧٠٥).

المبحث السابع

العلم النافع:

العلم النافع الذي يحقق التزكية: هو كل علم يقرِّب من الله سبحانه، ويزيد الخشية منه، ويدفع إلى العمل الصالح.

ويدخل في هذا العلم الشرعي أولاً، ثم تأتي بعض العلوم الأخرى التي تدفع الإنسان إلى التفكر في المخلوقات وإدراك قدرة الله تعالى وبديع صنعه.

والعلم عبادة عظيمة، وقد أمر الله عباده به وجعله مقدماً على العمل، فقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾(محمد: ١٩).

ولهذا كان العلم النافع القائم على توحيد الله سبحانه الوسيلة الأساسية الأولى لتزكية النفس وبلوغها مقامات الخشية والقرب من الله سبحانه، وتصحيح مسار المسلم، وترسيخ الإيمان في قلبه.

وقد تظافرت الأدلة من الكتاب والسنة في بيان فضل العلم ومنزلة العلماء وآداب طلب العلم والثمرات العظيمة التي يحظى بها العلماء العاملون بعلمهم.

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾(الزمر: ٩).

فالقنوت لله واستشعار الخوف من عذابه والتطلع إلى رحمته ثمرة من ثمرات العلم النافع الذي يفتح البصيرة وينوّر القلب.

ومما يدل على شرف العلم وفضله أن الله سبحانه أمر نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(طـه: ١١٤).

والعلم النافع له ثمرات عظيمة بما يغرس في نفس صاحبه من تقوى الله والخشية منه، ولهذا كان العلماء العاملون أكثر الناس خشية من ربهم، بل إن هذه الخشية محصورة في أهل العلم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(فاطر: ٢٨)، ولفظ (إنما) يدل على الحصر.

وهذه الآية الكريمة دليل على أهمية العلم في التزكية، وكونه وسيلة لابد منها لمن أراد البداية الصحيحة لتزكية النفس وطهارتها من أمراضها.

والعلم النافع هو العلم الذي يتبعه العمل ويلتزم صاحبه بالخلق الفاضل والأدب الكامل والاعتصام بالكتاب والسنة وإخلاص القصد لله سبحانه، وبذلك يثمر ثمراته المرجوّة في تزكية النفس.

ولقد حذرنا الله سبحانه من العلم الذي لا يصاحبه العمل، ومن القول الذي لا يتبعه الفعل، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾(الصف: ٢-٣).

وروى مسلم عن أسامة بن زيد ﷺ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه))[1]

١- رواه مسلم في الزهد - باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله - رقم (٢٩٨٩).

ولقد كان الرسول ﷺ يربي أصحابه على العلم النافع الذي يزكي النفس، وبذلك تَخَرَّج في مدرسة النبوة هذا الجيل القرآني الفذ الذي حمل رسالة الإسلام إلى الآفاق، وتسلّم وراثة النبوة ليسلّمها لمن بعده بأمانة وإخلاص، وتعاقبت الأجيال الفاضلة التي تتلقى العلم للعمل وتتأدب بآداب العلم وتتحلى بفضائله.

ولهذا العلم آثار عظيمة في تزكية النفس، ومن أبرزها:

١- العلم النافع يعرّف المسلم بالعقيدة الصحيحة ويرسّخ إيمانه بها، ويزيد يقينه بقدرة الله سبحانه وبديع صنعه وحكمته في خلقه وتدبيره، ويقوي دعائم أركان الإيمان في نفسه، وهذه الأركان هي الأساس في تزكية النفس.

٢- العلم النافع يعلّم المسلم أحكام الحلال والحرام، وكل ما يحتاجه من أحكام العبادات والمعاملات فالعلم إمام العمل وقائد له، ويحدد للمسلم منزلة كل عبادة ويبين له الفرائض من النوافل، فلا ينشغل بنافلة على حساب فريضة، فإن من علامة الاختلال في الفهم المسارعة إلى نوافل الخيرات والتكاسل عن القيام بالواجبات.

٣- العلم يحفظ صاحبه من موارد الهلكة، ويحرسه، ويجنبه مداخل الشيطان، ويحجزه عن المعاصي.

٤- العلم يثمر أعظم ثمرة يتمناها كل مسلم وهي الخشية من الله سبحانه ومحبته والقرب منه، وهذه الخشية تنمو في النفس كلما ازداد المسلم طلباً للعلم وعملاً به، والخشية الصحيحة لا يحظى بها إلا العلماء العاملون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(فاطر: ٢٨).

فالعبد يستدل بالعلم على ربه فيعرفه وإذا عرف العبد ربه عرف نفسه وأدرك افتقاره إلى خالقه ولذلك كان الإمام أحمد رحمه الله يقول: (أصل العلم خشية الله).

وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(الحج: ٥٤).

٥- العلم كفارة للذنوب والخطايا وتطهير للنفس، وذلك لأن العلم عبادة جليلة يظفر المسلم من ورائها بالأجر العظيم، وهو من الحسنات التي يكفّر الله بها السيئات.

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: (إن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبل تهامة، فإذا سمع العلم خاف ورجع وتاب، فانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب فلا تفارقوا مجالس العلماء)[1]

١- مفتاح دار السعادة لابن القيم (٧٧/١).

المبحث الثامن

وسائل أخرى:

١- من وسائل تزكية النفس: أن يكثر العبد من ذكر نعَم الله التي حباه بها ربه:

فإن تذكر النعم يوجه النفوس إلى خالقها، ويعلقها به فإن الذي يغفل عن ذكر النعم يتعاظم في نفسه، وقد يدل على الناس وعلى ربِّ الناس بماله وجاهه وفطنته وذكائه، بل قد يدل بعبادته واستقامته، ولا يخلصه من ذلك إلا علمه بأن كل ما به من صحة وعافية وخلق حسن وعلم وفهم من الله وحده، فوجوده كله من الله، وحياته كلها بالله، وما يملكه كله من الله، ومصيره إلى الله وحده، والله قادر على أن يسلب العبد وجوده، ويسلبه ما أعطاه.

ولا يعرف العبد هذه المعاني إلا إذا عرف ربه تبارك وتعالى، وعرف كماله وبره وغناه وجوده وإحسانه ورحمته، وأن الخير كله في يديه وأنه مالك الملك، يؤتي من يشاء، أو يمنع منه من يشاء. فهو سبحانه المحمود في السراء والضراء، والبؤس والرخاء.

وهذا يدعوه إلى أن يعرف نفسه وعجزها وتقصيرها وحاجتها إلى ربها ومعبودها، فإذا شهد هذا المشهد ازداد علماً بالله وعظيم نعمه عليه.

٢ – ومن وسائل تزكية النفس: الالتزام بالآداب والأخلاق الإسلامية:

وقد بين القرآن الكريم أثر الآداب التي حث عليها القرآن في هذه الزكاة المنشودة للأنفس كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ

أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾(النور: ٣٠).

٣ – ومن وسائل تزكية النفس: الالتزام بالأحكام الشرعية:

وقد بين القرآن الكريم أثر الالتزام بالأحكام الشرعية التي فرضها الله تعالى في شؤون الأسرة وغيرها في هذه التزكية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة: ٢٣٢).

الفصل الثالث

تزكية النفس وأثرها في الدعوة إلى الله

١- تزكية النفس والحفاظ على الدعوة من الفتور والانحراف، وتصحيح مسارها.

٢- تزكية النفس زاد للداعية على طريق الدعوة (استمرارية الدعوة).

٣- تزكية النفس ويقظة الهمم نحو الخير.

٤- تزكية النفس والتبصير بطريق الدعوة.

٥- تزكية النفس ومقومات التغيير.

٦- تزكية النفس وتحمل تبعات الدعوة إلى الله.

٧- تزكية النفس وتقوية الصف الداخلي للدعوة.

٨- تزكية النفس وصياغة شخصية الدعاة إلى الله.

٩- تزكية النفس وسيلة للدعوة المؤثرة (السلوك العملي للدعاة..القدوة العملية).

١٠- تزكية النفس وإيجابية الداعية في الحياة.

١١- تزكية النفس ودورها في حماية الدعوة الإسلامية من الفتن والتقلبات والأزمات والخروج منها.

١٢- تزكيـــة النفس وبركاتها على الدعوة والدعاة (تزكية النفس والمؤيدات الربانية).

تمهيد

حين تمضي مسيرة التزكية في طريقها الصحيح الذي حدده الإسلام له وتجتاز المعوقات وتتغلب عليها فلابد لها أن تثمر ثمراتها اليانعة في الدنيا والآخرة، وهي ثمرات دائمة في كل حين يجد العبد لذتها ويستشعر حلاوتها ويتقلب في نعيمها، ويتلمس آثارها في كافة مجالات الحياة وجوانبها، وكلما ترقى العبد في مدارج التزكية زادت تلك الثمرات إشراقاً وتألقاً.

ومن أهم آثار تزكية النفس في مجال الدعوة الإسلامية وفي ميدان نفوس الدعاة إلى الله ما يلي:

١- تزكية النفس والحفاظ على الدعوة من الفتور والانحراف، وتصحيح مسارها:

إن نصوص القرآن والسنة وكذلك التاريخ الإسلامي يشيران إلى أن الجهود التربوية تضمن سلامة الدعوة وبعدها عن الانحراف، وتساعد على تلافي الفتن ومعالجة الفتور بالاضافة إلى كونها من الإرشادات الشرعية، وانها هي السنة العملية التي سار عليها النبي ﷺ في تكوين أصحابه وتأسيس دولة الإسلام[١]

ويتعرض الدعاة إلى الله وهم على طريق الدعوة إلى حالات من الفتور أو الكسل يخشى لو استمرت أن تؤدي إلى الاسترخاء والقعود،

(١) المسار محمد أحمد الراشد ص١١

ولكن المؤمنين بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر كما أشار القرآن الكريم يمكنهم أن يتفادوا ذلك، وبالذكرى التي تنفع المؤمنين والتناصح الواجب بين المؤمنين بأن يذكر أخاه إذا نسي ويعينه إذا ذكر وأن يبصره بعيوبه ويعينه على التخلص منها[1]

ويتعرض الدعاة إلى الله على طريق الدعوة إلى التخويف والتهديد والوعيد من أعداء الله مما يدعو البعض إلى الخوف والبعد والقعود والانحراف ولا ينجو من ذلك إلا المتسلح بسلاح الإيمان المتزود بزاد التقوى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ. الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ. الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ. إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(آل عمران: ١٧١-١٧٥).

ويجب على الدعاة أن يظلوا أوفياء بعهدهم مع الله غير ناكثين ولا مبدلين ولا مغيرين حتى يلقوا الله على طريق الدعوة وهم على ذلك، والإيمان وتقوى الله خير زاد يعيننا على ذلك: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾(آل عمران: ٧٦)، ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾(سورة الأحزاب: ٢٣).

---

[1] زاد على الطريق ص١٤

٢- تزكية النفس زاد للداعية على طريق الدعوة (استمرارية الدعوة):

كل مسافر في طريق ما لابد له من التزود بكل ما يحتاجه على طريقه، بما يهيئ له أسباب مواصلة السير وتحقيق الغاية التي يهدف إليها من سفره، أخذاً في اعتباره ما سيتعرض له في طريقه من أمور ربما تحيل بينه وبين غايته أو على الأقل قد تعوق مسيرته[١]

هذا الزاد يتمثل في تزكية النفس وتنقيتها. وللتدليل على لزوم هذا الزاد وأهميته نقول أن سيارة المسافر إذا نفد وقودها في الطريق ولم يتزود بها صارت وكأنها قطعة من حديد لا تعينه على التحرك خطوة واحدة، كذلك من يسلك طريق الدعوة إذا تعرض زاده إلى النقصان أو النفاد ولم يتزود به صار صاحبه وكأنه جثة هامدة أو مريضة لا تستطيع حراكاً، وصدق الله العظيم: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(الأنعام: ١٢٢)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(الأنفال: ٢٤).

وإن الدعاة إلى الله في دربهم الطويل أو في طريقهم الوعر، وفي مواجهة التحديات والمحن، بحاجة إلى شيء أساسي لا غنى لهم عنه، ولا ثبات لهم بدونه، بحاجة إلى مدد من الله وعون منه..

وعندما اصطفى الله نبيه محمداً ﷺ لحمل الرسالة، تعهده في غار حراء، وصنعه على عينه، وأدبه فأحسن تأديبه، وزوده بما يمكنه من حمل

١- زاد على الطريق: ص٩.

الأمانة وتبليغ الرسالة وابتعاث خير أمة أخرجت للناس ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾(الشورى: ٥٢-٥٣).

وإذا كان هذا حال سيدنا رسول الله ﷺ فكيف يجب أن يكون حال الدعاة من بعده؟ إنهم أشد حاجة إلى أن يتزودوا لسيرهم الطويل، ويأخذوا بالأسباب التي تعينهم على المضي على الجادة من غير انحراف أو التواء..[١]

والله سبحانه لما أرسل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون أرشدهما إلى العدة الحصينة والزاد المفيد فقال جل شأنه: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾(طــه: ٤٢)، وذلك لأن الذكر هو الذي سيخفف عنهم مشاق الدعوة ويجعلهم يتحملون الوقوف أمام كفر الكافرين وجحود المعاندين، وهو الذي سيفتح لهم مغاليق القلوب وييسر لهم كل عسير.

(إذن لابد للداعية من زاد يقطع به الطريق، ويأن به من المكاره، ويرد به غائلة الفتن، ويحمي نفسه من بوائق المحن، وإذا كان الفقهاء من السلف قد قرروا أن سفر الأبدان دون التزود بالطعام لها مناف للتوكل، بل هو من بدع الجهلة والسفهاء، فإن التزود لسفر الأرواح أدعى أن يكون من منهاج النبوة، وأولى بالاتباع.. وقد أخذوا هذا المعنى من قوله

١ - قوارب النجاة ص٩٥-٩٦.

تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ (البقرة:١٩٧).

٣- تزكية النفس ويقظة الهمم نحو الخير:

كلما كانت النفس أعظم تزكية والقلب أتم حياة كانت همتها أعلى وأرادها أقوى، لأن الإرادة والمحبة تتبعان الشعور بالمراد المحبوب، فمن امتلأ قلبه حباً لربه سبحانه قويت أرادته في السعي لرضاه وسمت نفسه عن الدنايا، وأخسُّ الناس حياة أخسهم هماً وأضعفهم محبة وطلباً.

ولا شك أن الهمة تؤدي إلى تطلع المرء إلى عظائم الأمور وتبعث النشاط في النفس وتبعدها عن الدناءة والمهانة ومواطن الذلة، وهذا هو شرف النفس ونبلها النابع من طهارتها وتزكيتها، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٩-١٠)، أي أفلح من ربَّاها ونماها بطاعة الله، وخاب من صغرها وحقرها بالمعاصي.

فالأعمال الفاضلة والآمال السامية والمطامح العالية دليل على سمو النفس وعلو الهمة وارتقاء العبد إلى أعلى درجات الإيمان والقرب من الله سبحانه.

والمتأمل لسيرة الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يجدها حافلة بالمشاهد التي تدل على علو هممهم وتشوقهم إلى أعظم أمنية يطمح إليها المؤمن وهي رضاء الله سبحانه وجنته ومرافقة رسوله ﷺ في أعلى درجات الجنة والشوق إلى لقاء الله والنظر إلى وجهه الكريم سبحانه، وهم ابتغاء ذلك يجدون السير بلا كلل ويبذلون كل غال ونفيس ليحظوا بالمراد.

ومن ذلك مثلاً ما رواه مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي ﷺ قال: ((كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فآتيه بوضوئه وحاجته، فقال لي: سلْ، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: أو غير ذلك؟ قلت: هو ذاك، قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود))[1]

إذن فتزكية النفس وتنقيتها تفجر ينابيع الخير من داخل النفوس وتولد الطاقات وتشحذ الهمم والعزائم فتسهل الحركة وتخف جواذب الأرض وتتخطى العقبات وتتفادى المنعطفات وتتضح معالم الطريق، ويكون الصدق والإخلاص والعزم والثبات، ويتحقق ما يشبه المعجزات من الإنجازات على الطريق.

وتزكية النفس يلين بها قلب الداعية، فيسير يقظاً مرهف الحس، ينتفض بتيارات الروح القرآني، فيستخرج من دقائق إشاراته، وخفي عباراته، ما لا يلتفت إليه غيره، وهذا ضروري جداً للداعية الذي يجعل القرآن الكريم أهم موارده وأمداده[2]

وتزكية النفس هي الوقود للماكينة والدافع للحركة، حيث من خلالها يندفع الداعية مستشعراً الأجر والمثوبة يرى الجنة ونعيمها والنار وحريقها، فيركض برجله إلى منابع الخير مردداً:

ركضاً إلى الله بغير زاد　　　إلا التقى وعمل الرشاد

فهي شفافية تجعل الداعية يعزف عن هرج الدنيا فيُسهر ليله ويظمأ نهاره، كأنه ينظر إلى عرش ربه بارزاً وإلى أهل الجنة يتزاورون فيها وإلى أهل النار يتضاغون فيها، وعندما تصاب النفس بالخمول والكسل

---

١ – رواه مسلم – كتاب الصلاة- باب فضل السجود والحث عليه (٤٨٩).

تذكرة الدعاة.

وتنطفئ شعلة الحماس الإيماني ستتعثر القدم، وتستكثر الحمـــل، وتُصاب بالعتمة فتصاب بالعشى الليلي والرمد بالنهار[1].

٤- تزكية النفس والتبصير بطريق الدعوة:

التزكية تمد الداعية بزاد من العلم الفطري، ونور من المعرفة تتبين به حقائق الحياة، ويصحح له خطأه في فهمها والنظر إليها، ويهتدي على ضوئه إلى الصواب في معضلات الأمور: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾(النور: ٤٠).

نعم فإن جوانب النفس فسيحة. وآفاقها متعددة، ولكن أكثر الناس يعيشون في جانب واحد منها، جانب ضيق، يحصر صاحبه في أوهام المادة، وظاهر الحياة الدنيا، فيقع في تخييلات الباطل، ويغتر بزينة الفقعات، ويغدو فهمه للحياة، وإدراكه للحقائق والمعارف، متأثراً بهذه الأوهام فيكثر الخطأ في أحكامه، ويقع الزلل في مقاييسه وموازينه.. فإذا أشرقت الربانية، وطلعت شمسها الوهاجة في قلب أحدهم، استنارت نفسه وامتد النور الواضح إلى سائر جوانبها، فإذا الأفق آفاق، وإذا الجانب الضيق آماد شاسعات، وإذا معارف جديدة، ومشاعر جديدة، وحقائق جديدة. تظهر لنا فيما كان مخبوءاً عنا، وإذا بنا نرى الأشياء بفهم جديد، ونقيسها بمقياس جديد[2]

١- رسائل العاملين (١/٤٢٤).

٢- تذكرة الدعاة ص٢١٥-٢١٦.

ما أحوجنا على طريق الدعوة لنور الله يضيء لنا الطريق فنسير على بصيرة دون انزلاق في منعطفات تبعدنا أو عثرات تقعدنا، وهذا يتحقق بإذن الله بتزكية النفس وبزاد من التقوى والإيمان مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(الحديد: ٢٨)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾(الأعراف: ٢٠١)، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(الأنعام: ١٥٣).

٥- تزكية النفس ومقومات التغيير:

إن تزكية المسلم لنفسه -من خلال الصراع الذاتي الدائم لمجابهة قوى الشر والسلب في النفس والتفوق عليها- هي السبيل للاقتراب أكثر من جوهر الدعوة التي ينتمي إليها، والاندماج فيها، بعد اطّراح كل العوائق التي تنبثق في أعماق تكوينه الذاتي، بما تطرحه قوى البيئة والوراثة من مؤثرات. وبدون هذا الصراع الإرادي الباطني من أجل تغيير الذات، فإنه لا ينتظر أبداً حدوث أي تغيير أساسي على مستوى الصراع الخارجي في العالم.

إن قاعدة الحركة نحو الأحسن والأكمل عقائدياً في دعوة الناس إلى منهج الله هو أن نسعى لإحداث هذا التغيير باطنياً ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن

وَال﴾(الرعد: ١١). وفي آية أخرى يطرح القرآن الكريم المعادلة بصيغة أخرى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(الأنفال: ٥٣). والقاعدة القرآنية في كلتا الحالتين هي أن أي تغير نوعي في الخارج لا يتحقق إلا بعد حدوث التغير الباطني في الذات الإنسانية، سلباً وإيجاباً[١]

(وإننا نستطيع توجيه غيرنا متى نجحنا في توجيه أنفسنا نحن معاشر الدعاة) ولإمام مصر عبد الله بن وهب رحمه الله التفاتة حسنة إلى هذه الظاهرة، حيث كان يكثر من قول: (إنما يحسن الاختيار لغيره من يحسن الاختيار لنفسه).

هكذا هما وجهان متقابلان: شرط وعطاء، فالداعية محروم من التأثير في غيره ما لم يكن هو متأثراً منصبغاً بما يدعو إليه، كما أن تمثيله لحقائق دعوته وترجمته لمعاني إيمانه قمبانه قدرة تلقائية على شد المقابل إلى مساره والإحسان في تربيته.

وإن الداعية إذا الزم نفسه بالورع: كان لورعه أصداء يحدث تكررها وترددها تحريكاً للناس، ويوضح ذلك ما اكتشفه الزاهد يحيى ابن معاذ من أنك (على قدر شغلك بالله: يشتغل في أمرك الخلق)، وتوفيق الله تعالى لنا في عملنا الدعوي منوط بإقبالنا عليه، وما أزمة صدود الناس عنا إلا من نتائج أزمة قلة اهتمامنا بما أوجبه الله، ومن أقبل بقلبه على الله تعالى: أقبل بقلوب العباد إليه.

إن الدعاة كثيراً ما يشكون عزوف الناس عنهم والتهاءهم بشكليات عادية يجدونها عند الأحزاب الأخرى، وبالغث لا بالسمين، وباللغو لا

---

١ - التفسير الإسلامي للتاريخ ص ٢٤٦-٢٤٧.

بالعلم، وما من شك في أن هذه الظاهرة هي من الجهالة التي قوبل بها الأنبياء عليهم السلام وبعض المصلحين، وإنها صفة متوقعة من البشر، وإنها من علامات اقتراب الساعة، ولكن يبدو أن صدود الناس هذه الأيام قد فاق كل صدود سابق، وأن جهالة الناس بلغت مضيضاً واطئاً، واصبح أمر الإصلاح عسيراً على المقل الماشي في طريق الإيمان بهدوء وبرود، ولا بد أن يتصدى المكثر، الراكض، الفائر، ذو الحرارة.

إن للتقوى آثار تشغيل، وبمقدر جديتنا: يكون الناس جديين، ولنا شاهد دائم في أنفسنا، فإننا نتفاوت بين يوم ويوم، وإيماننا يزيد وينقص، فإذا كنا حيناً في إيمان جيد: رأينا إقبال الناس علينا، وإذا كان فينا جزر إيماني وقسوة قلب في حين آخر: رأينا قلة جدوى نشاطنا، مع كثرة غدونا ورواحنا، وكل واحد منا تعاقبت عليه من هذه الأحوال ولمس بنفسه اختلاف مواقف الناس منه[1]

٦- تزكية النفس وتحمل تبعات الدعوة إلى الله:

نتعرض على طريق الدعوة إلى الإيذاء والابتلاء -فتلك سنَّة الله في الدعوات- ولا يعين على تحمل ذلك والصبر عليه إلا زاد من الإيمان والتقوى ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾(آل عمران: ١٨٦)، وكان هذا منطق رسل الله أمام إيذاء الكفار ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

١- المسار: ص١٢- ١٤

الْمُتَوَكِّلُـــونَ﴾(إبراهيم:١٢)، وكان منطق سحرة فرعون بعد إيمانهم وتهديد فرعون لهم ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (طه: ٧٢).

ويتعرض الدعاة إلى الله على طريق الدعوة إلى التخويف والتهديد والوعيد من أعداء الله مما يدعو البعض إلى الخوف والبعد والقعـــود والانحراف ولا ينجـــو من ذلك إلا المتسلـــح بسلاح الإيمان المتزود بزاد التقوى ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ. الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ. الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ. إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(آل عمران: ١٧١-١٧٥).

وما أكثر ما يتعرض الدعاة إلى الله إلى أحداث ومواقف قد تجعلهم في ضيق أو حرج أو حيرة ويحتاجون إلى تحديد الموقف الذي يمليه عليه إسلامهم إزاء هذه المواقف أو الأحداث والقيام بالتقييم الصحيح لها من خلال النظرة الإسلامية والإقدام على قولة الحق ولو كان من ورائها العَنَت والإيذاء ولا يفيد في كل ذلك ولا يعين عليه إلا زاد من الإيمان وتقوى الله ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق:٢-٣)، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ (الطلاق:٤)، ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا

رَشَدًا﴾ (الكهف: ١٠).

ويحتاج الدعاة على طريق الدعوة لتأييد الله ونصره خاصة حين يتعرضون إلى صور مختلفة من كيد أعداء الله وحربهم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّه أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّه قَرِيبٌ﴾(البقرة: ٢١٤)، ونصر الله والتمكين لدينه لا يتحقق إلا للمؤمنين المجاهدين، فتزكية النفوس سبب أساسي وشرط لازم لتحقيق نصر الله والتمكين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَات فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(الروم: ٤٧)، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا منكُمْ وَعَملُوا الصَّالحَات لَيَسْتَخْلفَنَّهُم في الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ من قَبْلهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْد خَوْفهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلكَ فَأُوْلَئكَ هُمُ الْفَاسقُونَ﴾(النور: ٥٥).

إذا لكي نتمكن من تحمل تبعات الدعوة إلى الله لا بد من أن نزكي نفوسنا حتى تغلب فيها هم الآخرة على هم الدنيا، فقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخرَة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِه وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْته منْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخرَة من نَّصِيبٍ﴾(الشورى: ٢٠). فالداعية درجة ثباته وضعفه يتناسب مع درجة قربه من الآخرة، فبمقدار حُبِّه للآخرة يكون ثباته وتحمله والعكس صحيح[١]

وقد قيل شعراً:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا نُبقي ولا ما نُرقع

رسائل العاملين (١/٢٦٥).

٧- تزكية النفس وتقوية الصف الداخلي للدعوة:

إن الإسلام يدعونـــا إلى التمسك بالوحدة، وألا نهدم وحدتنا بالشقاق والنزاع ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(آل عمران: ١٠٣)، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(آل عمران: ١٠٤- ١٠٥) ،﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(الأنفال: ٤٦).

كيف تستطيع الجماعة المؤمنة أن تحفظ وحدها من التفكك والتمزق والتشرذم؟ إن القرآن يطرح أمامنا التزامين أساسيين، لا لضمان هذه الوحدة وديمومتها فحسب، بل لتنميتها وتوسيعها عمقياً وعمودياً، لتحويلها إلى (صيرورة) دائمة نحو الأحسن والأرقى في ممارساتها وفي معطياتها على السواء.

الالتزام الأول التزام أخلاقي، يرمي إلى تكوين أخلاقية خاصة بالجماعة المؤمنة تنبثق في أعماق الفرد لكي تعطي لونها للعلاقات الاجتماعية كلها... وكلما التزمت جماعة ما بمزيد من القيم الأخلاقية، وكلما سعت إلى صقل هذه القيم وتأصيلها في أعماق البنية الاجتماعية كلما تمكنت من حماية وحدتها ومن إطالة عمرها الحضاري وإبعاد شبح التدهور والسقوط.. وكلما بدأت جماعة ما بالتخلي عن هذه

الالتزامات، وإطراحها جانباً، وعدم السعي لبلورتها وتعميقها في الممارسة الجماعية، كلما عرّضت وحدتها للتفتت وآذنت لنشاطها ومعطياتها الحضارية الشاملة بمصير سيئ في وقتقريب.

لقد كان خليفة المسلمين الأول، أبو بكر الصديق، واضح الرؤية عندما خاطب مبايعيه في كلمته الأولى لهم: ((انه ما شاعت الفاحشة في قوم قط إلا ضربهم الله بالذل))، وكان واضح الرؤية أيضاً عندما أردف ((وانه ما ترك قوم الجهاد قط إلا عمهم الله بالبلاء)) وهذا ينقلنا إلى الالتزام الآخر..(الجهاد)..[1].

إن الإسلام يحدثنا، من خلال كتاب الله وسنّة رسوله، أن صراع المسلم في العالم(فرداً وجماعة) يتخذ اتجاهين أحدهما باطني ذاتي عمودي سماه الرسول ﷺ: (الجهاد الأكبر) لما يتطلب من مصاعب ويستلزمه من قدرة على المقاومة والمراقبة والحذر والتجرّد، وهو يهدف إلى مواجهة الإنسان لذاته وتغييرها تغييراً حركياً مستمراً من أجل أن يُسقط عنها كل النزعات والشهوات والممارسات السلبية التي من شأنها أن تصدّها عن التوحيد الكامل والاندماج الشامل في مسيرة الفكرة التي تتطلب– عبر ديمومتها الحركية– من المنتمين إليها شروطاً نفسية وأخلاقية وذهنية لابد من توفرها إذا ما أريد للحركة أن تصل إلى أهدافها بأشد الأساليب نقاءً وتركيزاً وتوحداً ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾(العنكبوت: ٦).

إن الجهاد، كهدف إيماني حركي دائم، أشبه بمعامل عقائدي – اجتماعي يشد أفراد المجتمع الواحد بعضهم إلى بعض، ويوجههم صوب

---

١ - التفسير الإسلامي للتاريخ ص٢٨٨.

بؤرة واحدة، ويدفعهم إلى تجاوز السكون والتحرك الدائم إلى أهداف أبعد فأبعد، وهذا -بطبيعة الحال- يكون بمثابة ضمان أكبر لوحدة الجماعة المسلمة وتماسكها واستمراريتها.

إذن فالالتزام الأخلاقي والجهاد بكافة أنواعه -وخاصة جهاد النفس- وسيلة أساسية لتقوية الصف الداخلي للدعوة.

٨- تزكية النفس وصياغة شخصية الدعاة إلى الله:

تزكية النفس وإصلاحها وتكوين الروح المؤمنة واجب في صياغة الشخصية الإسلامية، وتحويل النفس من نفس أمارة بالسوء إلى نفس مؤمنة أمر لازم لصياغة الشخصية الإسلامية، والارتقاء بهذه النفس إلى مراتب عالية من التقوى والصلاح والإيمان، وهو أمر مهم في الدعوة إلى الله لأن المؤمن يمارس بهذه الروح العمل الواقعي فيؤثر ويتأثر، ومن ثم كان واجباً أن تصاغ صياغة تؤهله لكي يكون من أولياء الله العاملين[١]

وهذه التزكية تسمو بفضائل الداعية النفسية، وقواه العاطفية، إلى ذروة من الفضل مما يجعله جديراً بشرف الدعوة إلى الله، فهو عالمي العاطفة رباني النفس، تتسع نظرته لأتباعه ومخالفيه، وتشمل الناس جميعاً بحبها[٢]

والداعي إلى الله واجب عليه أن يتبع أوامر الله في دعوته إليه والتي اتصف بها رسول الله ﷺ في دعوته للناس من لين الجانب والرحمة والحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن والصبر على أذى

١- رسائل الشباب (١/٢٣٧).

٢- تذكرة الدعاة ص٢٢٨.

مَن يدعوهم، وهكذا، وصدق الله العظيم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(آل عمران: ١٥٩)،﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(النحل: ١٢٥)، ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾(الأنعام: ٣٤)، وبالنسبة للشعور بالإشفاق على الناس بسبب إعراضهم عن دعوة الله يقول تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾(الكهف: ٦).

٩- تزكية النفس وسيلة للدعوة المؤثرة (السلوك العملي للدعاة، والقدوة العملية):

تزكية الداعية لنفسه لابد منها لكي تكون دعوته ناجحة ومؤثرة في نفوس الناس ولكي يتمكن من تزويد الآخرين بالطاقة والقدرة على تزكية نفوسهم والانتصار عليها.

وفي ذلك يقول الإمام أبو بكر الآجري رحمه الله: (إن من قوّم نفسه حتى تستقيم فالأحرى أن ينفع نفسه وغيرها، ومن غلبته نفسه فأنفس الناس أحرى أن تغلبه، وكيف لا يضعف عن أنفس الناس وقد ضعف عن نفسه؟ وكيف يُؤْمن على كل شيء من الأنفس وهو متهم على نفسه؟ وكيف يُهتدى بمن قد أضل نفسه؟..

ومن لم يحسن أن يكون طبيباً لنفسه لم يصلح أن يكون طبيباً لنفس غيره، ومن لم يحسن أن يؤدب نفسه لم يحسن أن يؤدب غيره)[1]

والداعية قائد والقائد إذا لم يفقد قوة روحه وهيمنة نفسه، فهو قائد ضعيف التأثير، ولن يغنيه في جمع القلوب من حوله قانون مفروض أو أمر من أوامر ذوي السلطان وإنما يجمعها لك، ويهوي بها إليك كيانك المعنوي وإنسانك الباطني، الذي يترعرع في رياض هذه الروحانية[2]

وإن الداعية طبيب يعالج الإنسانية من علتها الكبرى التي تتسلل منها سائر الأمراض.. ومعلوم أن دواء هذه العلة، ليس مما ينبت في حقل، أو يخرج من منجم، أو يركب في صيدلية، إنما هو روح إلهي في ضمير العبد المؤمن، يشيع الربانية، فإذا هي للناس شفاء ورحمة، ونور وقوة، ورضى وبهجة، واستقامة وعمل.. فهذا القلب الحي الكبير، هو (الصيدلية الإلهية) وكل كلمة تصدر عنه هي: (علبة دواء) أو(حُقن) فيه شفاء.. فما لم تكن أقوال الداعية وأفعاله صادرة من محيطه الروحاني، منبعثة من حياته التي يحياها وراء المادة، كانت أقوالاً غير مغموسة في النور، لا تمس القلوب بشيء من أسرار الشفاء.. نعم قد ينمق المتكلم كلامه، ويوشي عبارته، فيثير العواطف، ويحظى بالاستحسان، ولكنه استحسان الزيف والتهريج. أترى المريض يشفيه أن تقدم له (علبة فارغة) (وحُقناً ليس فيه شيء) وحسبه أنها علبة موشاة بالذهب، وأنه (حُقن مطعم بالعاج والصدف) ليس إلاّ؟

إن سهر الداعية على خاصة نفسه وأهله أمر لا محيص عنه كي تثمر

١- أدب النفوس للآجري (٢٥-٢٦). نقلاً من كتاب: منهج الإسلام في تزكية النفس (١/٤٠٢).

٢- تذكرة الدعاة ص ٢١٥.

دعوته وتحمد طريقته[1]

فهذه التزكية هي الدواء، فإذا خلت أقوال الداعية وأعماله منها فلا بركة فيها ولا تأثير لها[2]

١٠- تزكية النفس وإيجابية الداعية في الحياة:

إن تذكر الداعية أن مناط التكليف فردي، وأن كل فرد سيحاسب يوم القيامة فرداً، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى يدفع الداعية نحو الإيجابية في العمل والمثابرة، فينحصر تفكير الداعية فيما يجلب له الأجر، ويقربه إلى الطاعة، ويفكر الداعية بنفسه أنه سيحاسب يوم القيامة على أعماله، وعما قدم.

ولقد توارد معنى الإيجابية، وتكرر في القرآن الكريم بصور شتى وأساليب متنوعة، ليتركز مفهوم فردية التكليف، وبالتالي ذاتية العمل، وما ينعكس عن ذلك من تثبيت مفهوم إيجابية الداعية في العمل والمثابرة، ومنها أوضح آية في كتاب الله تعالى تحدد معنى الإيجابية، ألا وهي قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾(النساء: ٨٤).

والمعنى واضح في أمر الله تعالى لنبيّه في عدم تكليف أحد إلا نفسه، وأن لا ينتظر إعانة من أحد، رغم أن المعلوم من الشريعة أن الأمة كلها مكلفة بالجهاد، ولكن المعنى أن يفترض كل مسلم من الأمة –والقدوة

١ - مع الله (دراسات في الدعوة والدعاة)، للشيخ محمد الغزالي ص١٩٥

٢- تذكرة الدعاة ص ٢١٣.

في ذلك نبيها ﷺ- أنه وحده المكلف بالأداء، وأن الله قـــادر على نصره، وينحصر واجبه في تحريض المؤمنين.

وفي كلمة موجزة يمكن القول بأن تزكية النفس -بحيث تعيش في ظلال الإيمان وأجـــواء الآخرة- من أول دوافع الإيجابية في حياة الداعية[1]، وأنها من أعظم أسباب نجاح الداعية، إذ ليس النجاح بفصاحة اللسان ولا قوة البرهان ولا كثرة الأعوان، بل هو مع ذلك وقبل ذلك بتوفيق الله الذي يخص به أوليـــاءه، ولا شك (أن الدعاة الذين شعورهم بالله أعمق وارتباطهم به أوثق، وشغلهم به أدوم، ورقابتهم له أوضح هم الذين يكرسون أوقاتهم لله لدفع الناس إلى سبيله)[2]

وتزكية النفس والروحانية العالية للداعية تحفزه للتضحية وطلب الشهادة وتعمق الحاجة إلى رضا الله لتغدو هاجساً يومياً يلاحق كل مواطن رضاه في عملية تدقيق ومعاناة تجعله يعيش مع عقيدته في أفكاره ومشاعره وفي علاقاته ومطامحه، فتتحول في داخل ذاته إلى هم يومي متحرك يراقب الأشياء من خلاله، ويحدد موقفه منها على أساسه[3].

١١- تزكية النفس ودورها في حماية الدعوة الإسلامية من الفتن

١- الإيجابية في حياة الداعية ص٦-٧ د. عبد الله يوسف الحسن- دار المنطلق. دبي الإمارات العربية المتحدة، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

٢- مع الله (دراسات في الدعوة والدعاة) محمد الغزالي ص١٩٠.

٣- مقومات الداعية الناجح- د. علي بن عمر بن أحمد بادحدح، ص٤٣، دار الأندلس الخضراء، ط١، ١٤١٧ هـ- ١٩٩٦م.

والتقلبات والأزمات والخروج منها:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ. فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(الأنعام:٤٢-٤٣).

فالله سبحانه وتعالى نَدَبَهم إلى التضرع والخشوع إليه سبحانه لعله يرفع عنهم ما نزل بهم، وما أحوج الدعاة إلى ذلك، وفي القرآن الكريم نماذج طيبة لعباد وقعوا في محن فلم يخلّصهم إلا صدق اللجوء إلى الله كأيوب ويونس ويوسف عليهم السلام، بل إن البشرى لم تأت زكريا إلا ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾(آل عمران: ٣٩)، ولما شكا عوف بن مالك الأشجعي وقوع ابنه في الأسر أمره رسول الله ﷺ أن يكثر هو وزوجته من قول: ((لا حول ولا قوة إلا بالله)) فلم يلبثا حتى جاء ابنهما بإبل يسوقها غنيمة من أعدائه.

ويقول النبي ﷺ: ((من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب))[1].

إضافة إلى ذلك فإن تزكية النفس وسيلة حماية وباب للدخول في حصن الله. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾(الزمر: ٣٦)، وكان السابقون يقولون: على قدر العبودية تكون الكفاية، أي كلما صدقت منا العبودية زادت كفاية الله وحمايته لنا.

١- رواه أبو داود في سننه - باب في الاستغفار- (٢ / ٨٥)- رقم (١٥١٨)، وابن ماجة- باب الاستغفار - (٢ / ١٢٥٤)- رقم (٣٨١٩).

وروى الإمام أحمد والترمذي عن النبي ﷺ قال: ((إن الله سبحانه وتعالى أمر يحيى بن زكريا ﷺ بخمس كلمات)) منها: ((وآمركم أن تذكروا الله تعالى فإن مَثَل ذلك مَثَل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى إذا أتى إلى حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يُحْرِزُ نفسه من الشيطان إلا بذكر الله)).

وتزكية النفس حمايـــة من الفتن والتقلبات التي تعرض للداعية، يقول ﷺ: ((بادروا بالأعمال- أي الأعمال الصالحة- فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع أحدهم دينه بعرض قليل من الدنيا))[1].

والقلب تمر عليه الفتن وتعرض كالحصير عوداً عوداً، وهذا القلب هو الذي يؤثر على الجوارح فوجب المحافظة عليه من الفتن وذلك (أن تلجأ دوماً إلى تربية تسلك بنا في مسارين دائمين وخطين متكاملين مسار التجرد الإيماني ونيل الرضا الرباني بإطراح شهوة النفس والتخلص من نزغات الشيطان بعلاج ما هنالك من عيب طرأ بعد قمة أو نقص فضح المنظر بعد كمال من خلاف أو تخليط أو سير بلا تحديد تخطيط وأنوار الفطنة التي أضاء منها أول ما أضاء نور الاستعاذة بالله من الفتن، هي أنوار أوقدت لتنير مراحل كل من هذين المسارين فهي تؤنس المؤسس الرائد كما تهدي العاثر المنيب)[2]

١٢ - تزكيـــة النفس وبركاتها على الدعوة والدعاة (تزكية النفس

١- رواه مسلم وأحمد والترمذي عن أبي هريرة (كشف الخفاء للعجلوني(١/ ٣٣٠)).

٢ - العوائق، محمد أحمد الراشد ص١٢٠-١٢١.

والمؤيدات الربانية):

كلما شاعت تزكية النفس والأخلاق الإيمانية الفاضلة فينا وزادت نسبة صفاء القلب وكثر الاستغفار وتوالت التوبة: كانت خطتنا أقرب إلى النصر في التصور الإسلامي، وأجدر بالوصول إلى غايتها.

والمروي في هذا المعنى عن السلف شيء متواتر، والمأثور عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه كان يوصي جنده بالتوبة قبل النـــزال، وكان أبو الدرداء ﷺ يقول: ((أيها الناس: عمل صالح قبل الغزو، فإنما تقاتلون بأعمالكم))، وكان الفضيل بن عياض يقول للمجاهدين إذا أرادوا أن يخرجوا: ((عليكم بالتوبة، فإنها ترد عنكم ما لا ترده السيوف))[1]

والقرآن الكريم في نظرته الكلية إلى الكون والحياة والإنسان قد أوضح لنا المنهج العملي في إعداد الإنسان روحياً، وتكوينه إيمانياً، وتربيته نفسياً:

قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(الأنفال: ٢٩)، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(الحديد: ٢٨)، وقال جلّ جلاله في سورة الطلاق: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾(الطلاق: ٢-٣).

فالمتأمل في هذه الآيات يجد أن تزكية النفس هي أساس الفيوضات والأنوار والعطاء...

---

١ - المسار- ص١٣.

فبتقوى الله عز وجل -والتي هي من أسس تزكية النفس وثمرتها- يُمَيِّز المؤمن بين الغث والسمين، ويفرق بين الحق والباطل..

وبتقوى الله جلّ جلاله يجعل الله للمتقي نوراً يمشي به في الناس، فيهتدون بهداه، ويستنيرون بنوره..

وبتقوى الله سبحانه يجد المتقـــي المخرج الآمن السليم مهما واجه من مآزق، أو لقي من عقبـــات..(١)

١- روحانية الداعية، عبد الله ناصح علوان، دار السلام للطبع والنشر والتوزيع - القاهرة، ص٩-٨، ط٢- ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

الخاتمة ونتائج البحث

في هذه الخاتمة الموجزة سأعرض أهم النتائج التي حاولت بلورها عبر فصول هذا البحث، وهي صورة موجزة لأهم القضايا المثارة فيه.

أولاً: إن هذا الدين أشد ضرورة للعالم كله من ضرورات الطعام والشراب والهواء التي لا حياة بدونها، لأن فقد هذه الضرورات غاية ما يصيب فاقدها من ضرر أن يموت، والموت حتم لا مفر منه وإن تعددت أسبابه، أما هذا الدين فإن فاقده يترل به الشقاء في الدنيا والآخرة: ﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(العصر).

ثانياً: وكذلك أنه لا قيام لهذا الدين إلا بأن يُترجم إلى واقع ملموس في الحياة بدءاً بالأفراد وانتهاءاً بالمجتمع، وسبيل ذلك تزكية الأنفس: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾(الرعد: من الآية١١).

ثالثاً: والصلة بين تزكية النفس والدعوة إلى الله هي صلة وثيقة، فلا نجاح للدعوة بدون تزكية النفوس، ومهمة الدعاة الأساسية تزكية النفوس وتربيتها. فإذا أراد الدعاة لدعوهم النجاح والاستمرار على الخُطا السليمة وتجاوز العقبات والوصول إلى الأهداف المرجوة لابد لهم من التركيز على تزكية النفس، وإذا أرادوا أن يكونوا إيجابيين لدعوهم لابد أن يكون لهم إلى المساجد غدوات، ومع القرآن جلسات، وفي الآخرة تأملات، وإلى الأعمال الصالحة منافسة، ومع الصالحين مصاحبة، وإلى طلب العلم همة، ومن الشياطين ومداخلهم حذر،...

رابعاً: ولتحقيق التزكية في النفس وسائل كثيرة هي بمثابة أسس متينة

لبناء النفس، لأن كل بناء لا يقوم على أساس متين مآله إلى الانهيار، لذا جاء بالمنهج الذي يتم به الإصلاح والتزكية.

خامساً: ولتزكية النفس في الإسلام أهمية كبيرة وأهداف عظيمة في مجالات الحياة وميادين العمل الإسلامي، وبتحقيقها تحفظ النفس البشرية من الفساد، والأخلاق الإنسانية من الانحلال، والرغبات الفطرية من الاندثار، والعمل الإسلامي من الانحراف والتراجع، ورجالاته من الفتور والتساقط.

فهرس المصادر بعد القرآن الكريم

- ابن منظور، لسان العرب، د.ط، بيروت، دار لسان العرب،د.ت.
- ابن الجوزي، أبي الفرج عبدالرحمن، صيد الخاطر، د.ط، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.
- الأشقر، عمر سليمان، منهاج تزكية النفس في الإسلام، ط٢، الأردن، دار النفائس،١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
- الأشقر، عمر سليمان، عالم الجن والشياطين، ط٦، الأردن، دار النفائس،١٤١٢هـ-١٩٩١م.
- الأصفهاني، الراغب، مفردات ألفاظ القرآن، ط١، دمشق، دار القلم، ١٤١٢هـ-١٩٩١م.
- بادحدح، علي بن عمر، مقومات الداعية الناجح، ط١، المملكة العربية السعودية، دار الأندلس الخضراء، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
- البلالي، عبدالحميد، البيان في مداخل الشيطان، ط٦، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- الجرجاني، أبو الحسن علي بن محمد بن علي، التعريفات، د.ط، بغداد، دار الشؤون الاجتماعية العامة.
- الجوزية، ابن قيم، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ط١، بيروت، دار القلم، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- الجوزية، ابن قيم، الروح، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
- الجوزية، ابن قيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.
- الجوزية، ابن قيم، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ط٢،

بيروت، دار المعرفة، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.
- الجيلاني، عبدالقادر، الفتح الرباني والفيض الرحماني، د.ط، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- الحراني، تقي الدين أحمد بن تيمية، مجموعة الفتاوى، ط١، بيروت، دار الجيل، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- الحسن، عبدالله يوسف، الإيجابية في حياة الداعية، ط١، الإمارات العربية المتحدة، دار المنطلق، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- الحنبلي، محمد بن أحمد بن سالم الفاريني، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
- حوّى، سعيد، المستخلص في تزكية الأنفس، د.ط، عمان، دار عمار، د.ت.
- خليل، عماد الدين، التفسير الإسلامي للتاريخ، بغداد، مكتبة ٣٠ تموز، ١٩٨٦م.
- الخولي، البهي، تذكرة الدعاة، ط٨، القاهرة، مكتبة دار التراث، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- الدمشقي، ابن كثير، البداية والنهاية، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- الدمشقي، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط١، بيروت، دار الجيل، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- الراشد، محمد أحمد، العوائق، د.ط، طهران، نشر ادب.
- الراشد، محمد أحمد، المسار، ط٢، الإمارات العربية المتحدة، دار المنطلق، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.
- الشويخ، عادل عبدالله، مسافر في قطار الدعوة، ط١، الإمارات

العربية المتحدة، دار المنطلق، د.ت.
- علوان، عبدالله ناصح، روحانية الداعية، ط٢، القاهرة، دار السلام، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- الغزالي، محمد، مع الله، ط٥، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- القرضاوي، يوسف، كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟، ط١، القاهرة، دار الشروق، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
- القرطبي، أبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، د.ط، بيروت، دار الكتب العلمية.
- قطب، سيد، هذا الدين، ط٤، د.ن، د.ت.
- قطب، محمد، دراسات في النفس الانسانية، د.ت، القاهرة، دار القلم، د.ت.
- كرزون، أنس أحمد، منهج الإسلام في تزكية النفس، ط٢، بيروت، دار ابن حزم، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد، أدب الدنيا والدين، ط١٦، بيروت، دار إحياء التراث الإسلامي، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- محمود، علي عبدالحميد، فقه الدعوة إلى الله، ط٣، القاهرة، دار الوفاء، ١٤١٢هـ-١٩٩١م.
- محمود، علي عبدالحميد، التربية الروحية، ط١، القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
- المقدسي، ابن قدامة، مختصر منهاج القاصدين، ط٤، دمشق، دار البيان، ١٤١١هـ-١٩٩١م.
- الميداني، عبدالرحمن حسن حبنكة، الأخلاق الإسلامية وأسسها،

ط٣، دمشق، دار القلم، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- الياسين، جاسم بن مهلهل، رسائل شباب الدعوة، د.ط، الكويت، مؤسسة الكلمة للنشر والتوزيع،د.ت.
- الياسين، جاسم بن مهلهل، رسائل العاملين، د.ط، الكويت، مؤسسة الكلمة للنشر والتوزيع،د.ت.
- الياسين، جاسم بن مهلهل، رسائل فتيان الدعوة، د.ط، الكويت، مؤسسة الكلمة للنشر والتوزيع،د.ت.

فهرس

هذا الكتاب

إن الصلاح الانساني ينبع من اعماق الانسان، من نفسه التي بين جنبيه ، فإذا زَكَت النفس بالايمان وأنوار القرآن ، وتطهرت بالقول الطيب والعمل الصالح صلحت سيرة الإنسان واستقامت سريرته ، فصلاح السيرة من صلاح السريرة ، واستقامة الإنسان وصلاحه من كل النواحي مرهون بتزكية نفسه وإشراقة روحه قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) (الاعلى: ١٤-١٥)، (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا) (الشمس:٩)، فما احوجنا ونحن نعمل في ميدان العمل الإسلامي ونحمل هموم النهوض بالأمة الإسلامية والعودة بها الى سابق عهدها من عز ومجد وأستاذية ، ما أحوجنا إلى مراجعة جادة ومستمرة لنفوسنا وعرضها على آيات القرآن الكريم وسيرة الرسول ﷺ، وسيرة السلف الصالح الذين زكّوا أنفسهم حتى اصبحوا قادة ربانيين.

قسم الارشاد الاسلامي اذ يقدم الطبعة الثانية لهذا الكتاب ضمن سلسلة مفاهيم اسلامية ليوزع مجاناً يشكر للمؤلف الكريم الذي اذن بذلك، ويسأل الله تعالى ان يجزل له المثوبة .

يأمل من المربين والائمة والخطباء والمرشدين والمرشدات .. والعاملين في حقل الدعوة الى الله والتربية القويمة الافادة منه والله يهدي الى سواء السبيل

قسم الارشاد الاسلامي

صمم في قسم الارشاد الاسلامي